## لن نخرج عن مجتمعنا

**سؤال: كثيرٌ من الذنوب التي ارتكبناها في الماضي لا تفارقُ أذهانَنا حتى إن هناك ما يحضّ على ارتكابها بعينها كالمناظرِ السيئة التي امتلأت بها شوارعنا، فأصبحنا لا ندري ماذا نفعل إلّا أن ندعو الله تبارك وتعالى أن يكتبنا في عِداد الشهداء ونجد سبيلًا للتطهّر من الذنوب والآثام.**

**الجواب:** هذا ليس سؤالًا، بل طلبًا نابعًا من قلبٍ مُخْلِصٍ... إنّه تعبيرٌ عن همومِ قلب يحثّ الخطى جاهدًا للدنو من مرتبة الصحابة، ولقد اتخذْنا نحنُ قرارًا بالبقاء داخل هذا المجتمع وإن فاضت أسواقه وطُرُقاتُهُ بالذنوب والآثام.

وأستميحكم عذرًا هنا أن أتكلم في هذا الصدد مرة أخرى عن شعورٍ لطالما حدثتكم عنه في مناسبات عدة.

لما كتب الله لي زيارة نبيّه ﷺ لأوّل مرّة وذهبتُ إلى الروضة المطهّرة كدْتُ أُصابُ بنوبة جنون، حيث بدا لي كما لو أنني أرى رسول الله ﷺ بذاته، فكنت أتلفّتُ يمينًا وشمالًا على الدوام قائلًا: يا ترى أين هو!؟

وانتابتني في تلك اللحظة حالةٌ روحيّةٌ أستغني معها عن دخول الجنة حتّى وإن دعَتْني هي إليها وفتحَتْ لي أبوابها، إن شئتم فأطلقوا على هذه الحالة: المجنون بحب مدينة الرسول الأكرم ﷺ.

لكنني أوصي أصدقائي بأنني لو تركتُ مكاني هذا يومًا وجَاوَرْتُ في المدينة المنورة فما هذا إلّا لحالةٍ روحية فرديّة، فليأخذوا بتلابيبي ويجروني إلى هنا، وإلّا فذنبُ انقطاعي هناك عن الناس في رقبتهم، أحاسبُهم عليه أمام الله.

للمسألة وجهان مختلفان؛ أحدهما هو الشوق الذي لا يُتحمَّل للمدينة المنورة، والآخر هو ضرورة رفعِ النِّيرِ الواقع هنا.

أما الأول فهو شخصيٌّ تمامًا، وأما الثاني فهو خاصّيّةٌ تتعلّق بمصير شعب كامل، والأحرى بمصير العالم الإسلامي بأكمله.

إننا جميعًا نجد أنفُسَنا أمام الاختيار نفسه، فأنتم أيضًا -على الأقل- عاشقون مثلي لذلك المكان، ولكنكم مضطرّون إلى البقاء في بلادكم للعمل والسعي الحثيث؛ لأنّ أمّتنا قد فقدت مكانتها في التوازن العالمي هنا، وأخذَتْ تُمحى هويةُ جيلها، وانتهى كل شيء، فلو أن هناك أملًا سيبزغ نوره من جديد حتى تسير أمَّتُنا إلى الآفاق النيرة فهذا الأمل سيبدأ من هنا، فعلينا إذًا ألا نبرح أو نغادرَ مكاننا، وأن نكابد ونعاني ونضحّي بمشاعرنا وما تحمله من فيوضات ماديّة ومعنوية.

أجل، إنني أعترف أن الآثام كانت تعترض طريقنا، ونتواجه كل لحظة بما يجرح أرواحَنا، ورغم هذا فنوايانا سليمةٌ خالصةٌ، وتزدانُ قلوبنا بفكرةٍ يقينيّة؛ ألا وهي تأييد دين رب العالمين وغرس محبة رسوله ﷺ في شغاف

قلـوب جيلنـا، والعزم على البقاء حيـث كنا، مـع الرضا بدايـةً بالمصائب والبلايا التي قد نتعرض لها في هذا السبيل؛ ومن ثم فإننا نفضّل البقاء بين النـاس وتحمّل مكابرتهم وعنادهم على الإيـواء إلى الجبال والانزواء في زاوية للذكر فيها، إننا سـنعيش داخل المجتمـع، ونتسـحق تحت جنازيره أحيانًا، ومـع ذلك سنظل في داخله ولن نخرجَ عنه.

لأننـا مجبـرون بـل محكومٌ علينـا أن نـؤدّي وظائفَنا حيـث كنّا، وفي المكان الذي أقامنا الله فيه.

## الجهادُ الأصغر والأكبر

**سؤال: ما معنى الجهاد؟ وهلّا تفضلتم بتعريف الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر؟**

**الجواب:** الجهادُ يعني السعيَ وبذلَ الجهد وتحمُّلَ شتى أنواع المشاقّ والصعوبات، إلّا أن الجهاد قد تطوّر معناه مع مجيء الإسلام، وصار عَلَمًا على مجاهدة النفس والشيطان، والتصدي للأخلاق السيئة والسلوكيات الذميمة، ومحاربة الأعداء عندما تقتضي الضرورة ذلك، فضلًا عن الحذر والتنبّه والوقوف دائمًا على أهبة الاستعداد،

وجاء في حديثٍ شريفٍ -كما سنرى لاحقًا- أن الجهاد ينقسم إلى قسمين هما: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر.

ولكن قبل أن نُعرِّج على هذين القسمين أودّ أن أقفَ قليلًا على أهمية الجهاد.

ليست هناك وظيفة أسمى من وظيفة الجهاد، ولو كان هناك أسمى منها لكُلّف بها الأنبياء، ومن ثمّ فَمَنْ كلّفهم الله بهذه الوظيفة هم أشرف الناس، والملائكة التي حملت ونقلت هذه الوظيفة إلى الأنبياء هم أشرف الملائكة، وعلينا أن نعرف -أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ- أنّ أغلبَ المصطفَين الأخيار من لدن آدم عليه السلام حتى يومنا هذا -أنبياءَ كانوا أم أولياء- ما بلغوا هذه المرتبة من الاصطفاء إلا بفضل الجهاد ومحاسبة النفس.

إن الجهاد هو عملية وصول الإنسان إلى ذاته، أو إيصال الآخرين إلى ذواتهم، فهو -من أحَدِ جوانبِه- بمثابة الغاية من خَلْقِ الإنسـان، ولذا فهو يحمل أهمية عظيمة، وله قيمةٌ مقدّسةٌ ومبجّلة عند الله تعالى.

فهناك بَونٌ شاسـع للغاية لا سـبيل إلى تسويته بالأعمال الأخرى بين مَـن يتخلفون عـن الجهاد بلا عـذر ألبتة وبين المجاهديـن الذين يقضون حياتهم في هذا السبيل، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة:

**﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فَضَّـلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**

(سورة النِّسَاءِ: ٤/٩٥).

فـلا يمكن أن يتسـاوى مطلقًا مَـن يجاهدون في سـبيل الله ويتّخذون من تبليغ الدعوة منهاجًا ونبراسًـا لهم مـع غيرهم، ولنوضـح هذه المسألة ونبسِّطها بالمثال التالي:

النبوة هي وظيفة كلّف الله بها بعضَ المصطفين من الناس، وعلى ذلك فمهمّتهم هي التعريف بالله وتبليـغ الدين الذي جاؤوا به، وهذه المهمة هي مـا تسـتلزمه وتقتضيه وظيفة النبوة، إن النـاس يضطلعون بوظائف متعدّدة تسـتلزم مَهـامّ متعددةً كذلـك؛ فالحلاق والنجار والسـرّاج أو أيُّ صاحبِ مهنـةٍ لهم أهـداف وغايات يعتبرونهـا النقطة المثلى بالنسـبة لهم، ويجب ألا ننسـى أن كلّ مهنـة مـن هـذه المهن وما تتطلّبـه من مهامّ تُقيَّـمُ بالنظر إلى هدَفِها المنشـود، بمعنى أن قيمة مهنـة الحلاقة تُقدَّرُ بغاياتها وأهدافها النهائية، وهكذا الخياط والسرّاج.

وإن شئتم ففكّروا في مهن أرقى، فلو اعتبرنا نيابة البرلمان أو رئاسة الوزراء أو رئاسة الجمهورية مهنةً فما قرّرْناه سابقًا يسري على هذه المهن أيضًا، وكل هذه المهن تُقيّم وفقًا للنتيجة التي سيتم التوصّل إليها في النهاية.

والآن تأمّلوا في وضع الإنسان من حيث بداية كلّ شيءٍ ونهايته، فالإنسان بدايته نقطة ماء قذرة نضطرُّ إلى غسْلِها إذا ما سقطت فوق ملابسنا، ونهايته جُثّةٌ نَتِنَةٌ... أليست هذه هي بداية الإنسان ونهايته؟ وهذه هي آخر نقطة يصل إليها الناس أيًّا كانت وظائفهم ومهماتهم، بيد أن وظيفة النبوة ليست هكذا قطعًا؛ ففي أهدافهم أفق ونقطة مثالية، غير أن هذه النقطة لا تفسد أو تتعفن كما يحدث عند الآخرين.

إن الهدف المنشود عبرَ وظيفة النبوة هو:

تعريف الإنسان بالله، ووصول الإنسانية إلى الخلود بواسطة هذه المعرفة، وهذا يتحقّق بأن يرجع الإنسان -الذي استهلّ الفرشية عند ميلاده- مرة أخرى ويصلُ بالعرشية إلى الله... ثم كشف الإنسان تجليات البقاء في هذا العالم الفاني، واستشعاره بألوان الوجود في الفناء؛ حتى يصير بأفكاره قوسًا لألوان الطيفِ مرشَّحًا للخلود والبقاءِ... وقوس ألوان الطيفِ يُشْبِهُ قوسَ النصر، إلا أن الأخيرَ يمرّ الناس من تحته دفعةً واحدةً، أما قوس ألوان الطيف الأبديّ فبسبب رقَّتِهِ وشفافيّته يظلّ الإنسان يسير تحته ساعاتٍ وساعاتٍ ولا يمكنه أن يتجاوزه، وهكذا فقد جاء الإنسان مرشّحًا لهذا الخلود، وما استطاع أن يفجّر هذا الشعور وتلك الحقيقة الكامنة في ماهيته إلّا الأنبياء الذين يحملون وظيفة النبوّة على عواتقهم.

ومن ثمّ فإن وظيفةَ النبوّة هي أقدس وأنزه الوظائف، حتى إن الحقّ ﷻ قد لفتَ الأنظار بعد ألوهيّته إلى تلك الوظيفة، وهكذا فالجهاد هو أقدسُ

مهمّة في تلك الوظيفة القدسية، وبما أن كلَّ مهنةٍ من هذه المهن وما تتطلّبه من مهام تُقيَّم وفقًا للهدف المنشود فإن الوسيلة التي توصِل إلى ذلك الهدف المُقدَّس هي أيضًا على نفس المستوى من القدسيّة.

وبسبب أهمّيّة الجهاد أثنى القرآن الكريم على تلك الجماعة التي بايعت الرسول ﷺ على الجهاد وعاهدته على ذلك، يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الفَتْحِ: ٤٨/١٠).

وفيما يلي خلاصة الحادثة التي نزلت فيها هذه الآية:

بشر النبي ﷺ أصحابه بدخول مكة والطواف حول الكعبة، فبات الجميع في فرحٍ وسرورٍ، فمنذ سنين وقلوبهم تهفو حنينًا إلى مكة ورؤية البيت الحرام.

وكيف لا؟ فلقد عشقناها نحنُ وتُيِّمنا بحُبِّها برؤيتنا لها مرّةً أو مرّتين، وتتألم قلوبنا شوقًا ولَهَفًا لـمّا يتعذّر علينا الحجّ إليها، إنها مسقط رأس سيّد الأنبياء محمد ﷺ، وإن أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ على وجه الأرض هو في تلك البقعة المباركة من البيت الحرام.

إن هذه الكعبة كما قال الشاعر "نابي" هي مطاف القدسيّين والملائكة من الأرض إلى سدرة المنتهى.

أجل، كان يعتَصِرُ المسلمين شوقٌ عارمٌ إلى هذا البلد الأمّ الذي وُلدوا وترعرعوا فيه، والذي تهفو أرواحهم للوصال به، ثم الطواف بالكعبة التي يطوف بها القدسيون، والعودة كرةً أخرى إلى المدينة التي آوتهم

وفتحت أبوابَها لهم، غير أنهم فوجئوا بحادثةٍ لم تكن في حسـبانهم؛ فقد أعلن مشركو مكة رفضَهم لدخول المسلمينَ حاجّينَ هذه السنة، وأنّهم لن يتهاونـوا فـي محاربة من يُحاولُ الدخول عنوةً... لقد أحدثت هذه الواقعةُ المفاجئـة وقعًـا كبيرًا بين المسـلمين؛ فلا أحدَ يريد أن يصدّق ما سـمعه؛ حيث كانوا يعتبرون أن هذا الصدَّ من المشركين بمثابة ضربةٍ قويّة موجّهةٍ إلى صدر الإسلام وعزّته، فثارت ثائرتهم، واستشاطوا غضبًا، إلى أن بلـغَ السيل الزُّبى، ولم يعُدْ أحد يسمـع للآخر، وكأنّ كلَّ واحدٍ منهم قد أصيب بالتخبُّط والتعثُّر من هول المفاجأة.

في تلك الأثناء تمامًا دعا رسـول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة، وعندما تُذكَرُ "البيعة" تقفُ المياهُ الجارية، وتكفُّ عن خريرها أدبًا؛ فالآن يصطفُّ المسلمون ويبايعون رسول الله ﷺ؛ يشدُّون على يده، ويبايعونه على الولاءِ المُطلَق، وعلى الموت، ولقد بجّل القرآن الكريم هذه البيعة وذلك العهد، وأشـار إلى مدى درجة قرب هؤلاء الصحابة من الله بسـبب صنيعهم هذا، وهذا أيضًا مظهر آخر للقيمة التي أولَاها الإسلام للجهاد...

﴿إِنَّ اللّٰهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّـا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(سورة التَّوْبةِ: ٩/١١١).

فهـؤلاء أنـاسٌ باعوا أنفسـهم وأبدانهم وكلّ ما يملكونـه مقابل الجنة ونيـل رضا الله تبـارك وتعالى، ولقد عبَّر القـرآن الكريم عن ذلك الصنيع بالبيع والشراء، وهذا مقام يرقى بالإنسان إلى مستوى يستطيع من خلاله معاملة ربه ﷻ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ**"(٤٤)، فمن يدري كم من المرات كان من الممكن أن يكرر رسول الله ﷺ هذا القول إن لم يخش الإطالة في الكلام!

وبإمعان النظر قليلًا يتّضِحُ لنا أنّ هذا القول فيه معنى الخلود، وهو ما يمكن استنباطه من قوله: "**ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ**".

تأمّلوا جيّدًا... إن الذي يطلب هذا هو سلطان الأنبياء محمد ﷺ، فما عرف المسلمون قيمة الجهاد إلا من الله ورسوله ﷺ، يقول الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه:

"**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**"(٤٥).

ولكم أن تتأمّلوا! يومٌ يُرابِطُ فيه الإنسانُ على ثغورِ بَلَدِهِ، مُتصدّيًا لأيِّ خطرٍ محتَمَلٍ أو عدوٍّ يهدّد أمنَها خيرٌ له من الدنيا وما فيها، فلو قال إنسان: إنني بمرابطتي على ثغور بلدي أقوم بمهمة أهم من مهام الكعبة فلا يُعَدُّ كاذبًا؛ لأن الكعبة تدخل أيضًا ضمن قول سيدنا رسول الله ﷺ: "**خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**".

وفي رواية أخرى يقول ﷺ: "**رِبَاطُ يَومٍ وَلَيْلَةٍ خَيرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**"(٤٦).

وثمّةَ أحاديث وآيات كثيرة عن فضل الجهاد وأهمّيّتِهِ، إلا أننا نكتفي بهذا القدر لأن هذا ليس بموضوعنا الآن.

(٤٤) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٧؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٠٣.

(٤٥) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٧٢.

(٤٦) صحيح مسلم، الإمارة، ١٦٣.

الجهاد هو محاولة الإنسان للوصول إلى حقيقة ذاته، باستغلال قوته، وإرهاق نفسه، وتحمّل كل المشاق التي تعوق جريان الحياة، وهذا هو الجهاد الأكبر، أما عملية إيصال الآخرين للتكامل مع ذواتهم فهو الجهاد الأصغر.

لما أقفلَ النبي ﷺ عائدًا منتصِرًا من إحدى معارِكِه قال مخاطبًا صحابته: "**قَدِمْتُـمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**"، قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "**مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ**"(٤٧).

وهـذا القـول يعبّر عن وجهين مختلفين لحقيقـة واحدة، فكلاهما فيه تزكيـة للبشـرية ومحاولة للوصـول بها إلى الكيفية التـي يبتغيها ربنا تبارك وتعالـى، وعلـى ذلـك فالجهاد بنوعيـه الأصغر والأكبر يعبّـر عن وجهين مختلفين لحقيقة واحدة.

أوَليـس وصـول البشـرية إلى تلـك الماهية هـو الهدف المنشـود من إرسال الرسل عليهم السلام؟! كما قال ربنا جل وعلا في كتابه الكريم:

﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ١٥١/٢).

لقد أُرسـل الرسـل عليهم السلام لرفـع الغشاوة عن أعين الناس، وإعانتهم على قـراءة آيـات الله تعالـى، وعند تَـحَقُّـقِ تمامِ ذلك تتقـوّض جميـع العراقيل والعقبـات في قلوب النـاس وأفئدتهم، وتتغيّر النظرة برمّتها إلى الحوادث والأشياء، وتكتسب الحياة التي صمّ الناس فيها وعموا قيمةً ومعنًى بفضل النور الذي جاء به هؤلاء الأنبياء، أجل، إن قراءة الآيات التكوينية وفهمها لا يتأتى إلا بهؤلاء الرسل.

(٤٧) البيهقي: الزهد الكبير، ١٦٥/١.

فالنبـي هو مـن يعمل على تزكيـة الناس وإيصالهم إلـى ذواتهم؛ لأن النـاس بحاجـة إلى معالجةٍ خاصّةٍ كالمعادن، فـلا بدَّ من إذابتهم في بوتقة معيّنـة؛ حتى يحصلوا على الهوية المطلوبة بما يطرحونه من نفايات عالقة بهم وأشياء غير نافعة لهم.

أمـا الهوية المطلوبة فلا جرم أنهـا الهوية التي يرتضيها الحقّ ﷻ، ولا يتحقّـق الوصـول إليها إلا بإرشـاد الرسـل، فمن المتعـذّر مطلقًا أن نصير كالفضّـة الخالصـة أو الذهـب الخالـص إلا بالدخـول فـي منجـم الإذابة والاتصال بالله تعالى.

وهنـاك أمـرٌ لافتٌ للنظـر في هذه الآية، ألا وهو تعليـم النبي للكتاب والحكمـة، فلـو كان المقصود بالكتاب هنا القرآن فهـذا يعني أن الحكمة غير القرآن؛ لأنه لا يجوز أن نكرّرَ نسـبةَ الشـيء إلى نفسـه، ومن ثم نفهم أن الحكمة هي السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

وفوق ذلك سيظلّ النبي يعلمنا ما لم نكن نعلمه حتى يرث الله الأرض ومـن عليها، فهذا الخطاب ليس حِكرًا على إنسـان عصـر النبوة، بل يُفهَمُ منه أن هناك كثيرًا من الأمور سيظل الناس يتعلمونها من الأنبياء حتى يوم القيامة.

إننا تعلمنا من رسـولنا ﷺ -فيما يتعلق بحياتنا الشخصية- سُبُلَ تطهير القلب، حتى نشـأ بين تلامذته ﷺ من هم أمثال سـيدنا علي كرم الله وجهه الذي تُعزى إليه مقولة: "لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقينًا"، ومن حدسوا الأسرار في السماء وهم على الأرض كالشيخ الكيلاني، والآلاف ومئات الآلاف مـن أمثـال الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وبشـر الحافي... كل هـؤلاء كانوا ثمـرات مباركة لهذه التربية العظيمـة، فلو كان هناك نبوة

بعد النبي ﷺ لحلّق كلُّ واحدٍ منهم في سماء النبوة كما حدث في عهد أنبياء بني إسرائيل.

أجل، كثيرةٌ هي الأمور التي علّمها النبي ﷺ للبشرية وسيظلّ يعلّمها، لقد تعلّمت البشرية منه ﷺ كثيرًا من المسائل المعجِزَةِ للعقول حتى الآن، فلن يُكتب للبشرية النجاة في المستقبل من ظلمات الجهل إلا بفضل النور الذي جاء به، وعندها ستتقدّم البشرية بين هالات من الضياء حتى تحيط بكل الأنوار، وسترتقي بالمعارج النورانية إلى ذرى العلم والفن والتقنية.

إن النهجَ النبويَّ هو النهجُ الذي وَرَّثه النبيُّ ﷺ لرجال الدعوة من بعده، وعهد إليهم بتزكية الناس، والوصول بهم إلى درجات الكمال، وإيصالهم إلى ذواتهم؛ حتى يبلغوا درجة يرتضيها خالقهم ﷻ، ولا يتأتى تحقيق هذه النتيجة إلا بالجهاد؛ يعني إزالة الموانعِ والحواجز بين العباد وربّهم.

إن وظيفة الجهاد تتساوى مع وظيفة الشهادة على وجود الله، ففي المحكمة نستمع لأقوال الشهود حتى نعلم مَن صاحب الحق، ولا جرم أن هذه الشهادة يُعتدّ بها عند صدور الحكم، وهكذا يفعل المجاهدون أمام الملإ الأعلى عندما تنعقد المحكمة للجهلاء المنكرين لوجود الله، يرفعون عقيرتهم بالصياح شاهدين على وجود الله، **﴿شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٨/٣).

أجل، إن الله يشهد على وجوده، ومن يصلون إلى هذه الحقيقة في ذواتهم يشعرون بها، لدرجة أن الكتب جميعها تعجز عن شرح ما يشعرون به في أفئدتهم.

والملائكة شهداء على وجود الله، خلقهم الله من ماهية صافية، وفطرة نقية لا شائبة فيها، ومن ثم لم يستطع الشيطان إغواءهم أو تضليلهم، فلم تفسد بنيتهم ألبتة، فهم كالمرآة عند النظر إليهم تتراءى تجليات الحق ﷻ.

وأولو العلم شهداء أيضًا على وجود الله، ولو أنكرت الدنيا بأسرها وجود الله لكفت هذه الشهادات الثلاث.

أجل، إننا نستشعر هذه الحقيقة بكل ما فيها من وضوح وعظمة في أفئدتنا، نستشعر بها دون حاجة إلى التنقيب عن دليل آخر، وهذه الشهادة كافية للملإ الأعلى، وإن كان العمي والصم على الأرض لا يسمعون قعقعة الكون ولا يدركون صنعة الله فتكفيهم شهادة أولي العلم على ذلك.

إن شهداء الله سيتَّجِهون إلى أكثر الأسقاع ظلامًا على الأرض والتي تنكر وجود الله، ويصيحون بأعلى أصواتهم: "نحن شهداء الله على الأرض".

أجل، هكذا جاء الرسل مشحونين باستعداداتٍ عالية حتى يُؤدوا مهمّة الشهادة.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/١٦٥-١٦٦).

لقد أشرقَ الأنبياء في كل الأمم كالشموس التي تُنيرُ الآفاق، فالعهود تدور كما تدور الأرض تمامًا، ويظهر النبي كالشمسِ في كلّ عهد، ليُنيرَ العصرَ المظلم الذي جاء فيه، وأخيرًا جاء نبينا ﷺ فأضاء كلَّ العصور، ولذا خاطبه ربه تعالى في قرآنه قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة الأَحْزَابِ: ٣٣/٤٥).

ولقد تصدرت "أل" العهديّةُ لفظةَ "النبي" في الآية، ليدلّ على أنه نبيّ معروف ومشهودٌ بنبوته.

فإذا نظرْتَ إلى أيّ جانبٍ فيه تجد دلائل على نبوّته، شهدت على نبوته الجمادات بتحيّاتها، والنباتات بإيماءاتها، والحيوانات بانحناءاتها.

إنه نبيٌّ معلومٌ ومعروفٌ من قِبَلِ الجميع، ولا سبيلَ إلى إنكار ذلك، ومن ثم نجد القرآنَ يخاطبه قائلًا: "**يا أيها النبي**"، ويكفي لأن نعرف أنه نبي معلوم أيضًا أن القلوب الجامدة كالحجارة تتصدع وتذوب أمامَه ﷺ.

"**شاهدًا**" يعني إنا أرسلناك شاهدًا على الإنسانية، تبلِّغُهم ديني وتكون لي شاهدًا عليهم، وإن كذّب العالم بأسره وجحد لأعلنتَ أنت عن وجود الله، وبذلك أنت شاهد، وأمتك التي تأتي من بعدك شاهدةٌ أيضًا، هم سيشهدون على جميع الإنسانية، وأنت ستشهد على شهادتهم قائلًا: "هؤلاء أمتي"، فعَنْ أَبِي سَعِيد ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ** ﷺ **وَأُمَّتُهُ**، قال الراوي: قال النبيّ ﷺ: **فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ**، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ (سورة البَقَرَة: ١٤٣/٢) وَالوَسَطُ العَدْلُ"[٤٨].

إنه إنسان يبشّر الناس في طريق الخير، ويحذرهم من عاقبة السير في طريق الشر، وعلى ذلك فروح الجهاد مكنونة في هذه الحقيقة، وقد أُرسل الأنبياء لأداء هذه الوظيفة السامية؛ يضيئون العالم وينيرونه، ويشرقون ويغربون كالشمس في آفاق السماء، وبذلك لن ترى الإنسانيةُ

(٤٨) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٤.

وجه الظلام، ولن يتبقّى فؤاد لم تبلغه الحقيقة ولا بابٌ لم ينفتح على الحقيقة ولا نافذة لم تدخلها الحقيقة، سينفذ الحق والحقيقة إلى كل بيت، وسيستفيد الجميع منهما.

وعلى ذلك نجد أن مفهوم النبوّة كان مستقرًّا في أذهان وأفكار الناس من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ومنه إلى يوم القيامة، حتى وإن كان هذا المفهوم غامضًا ومبهمًا لدى البعض، فما صدرت بعض أطياف هذا المفهوم إلا عن النور الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام قديمًا.

والواقع أن من عاشوا في الفترة بين نبيَّين قد انحرفوا غالبًا عن الطريق المستقيم، وانساقوا إلى أفكار ومفاهيم ضالّة، لكن لم يعد هناك بيت لم ينفذ فيه معنى النبوة، وإن روح الجهاد وفكرته التي تعلن عن نفسها صراحةً أو ضمنًا في أفئدتنا اليوم ما هي إلا أثرٌ لنسمات النبوة الطاهرة؛ لأن كل الأنبياء على التوالي قد كرّسوا حياتهم لنشر الحقّ والحقيقة، فأصبحوا أكمل ممثلين للجهاد؛ أصغرِهِ وأكبرِه.

الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يُؤدَّى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمطُ من الفهم يُقلّص أُفق الجهاد، حيث إن مَيدان الجهاد واسعٌ جدًّا يمتدّ من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمةً واحدةً أو سكوتًا وصمتًا أو تبسّمًا وطلاقةَ وجهٍ أو امتعاضًا ونفورًا أو تركًا لمجلسٍ أو مشاركةً فيه... وباختصار هو القيام بأيِّ عملٍ من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحبّ في الله والبغض لله في هذا السبيل... ومن هنا فإن كل جهدٍ يُبْذَلُ لإصلاح المجتمع في أيِّ ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع، كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي، بمعنى أن ساحة الجهاد الأصغر تمتدّ

مـن العائلـة والأقـارب القريبيـن والبعيديـن والجـار الجنـب والصاحب بالجنب، حتى تشـمل الدنيا كلّها، والجهاد الأصغر بهذا المعنى هو جهادٌ ماديّ، أما الجهادُ المعنويّ فهو الجهاد الأكبر، ويعني جهاد النفس والعالم الداخلـي للإنسـان، فمتى مـا أوفى الإنسـان بهذين الجهاديـن فقد تحقّق التوازن، وإلا اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد وحقيقته.

ولقد تلقّينا مفهومَ الجهاد بنوعيه الأصغر والأكبر عن النبيّ الأكرم ﷺ كما تلقينا عنه كل شيء.

وفي الواقـع إننا لم نسـتطع بعدُ أن نسـتوعب فقهَ سيرتِهِ صلوات ربي وسـلامه عليه، لقد حمل ﷺ على عاتقه وظيفةَ نشـرِ الحقّ والحقيقة، فقام بهـا بشـكلٍ منظّم وأرسـاها على مبادئ سـليمة فيها مـن المرونة ما يكفل ديمومتهـا حتـى يوم القيامة، فإن فهمنـا القضايا على هذا النحو فلن يتعذّرَ علينـا أن نعـرف أن النبي ﷺ لم يقم بحركة عشـوائيّة قطّ، ولـم يترك نفسَـه لجَرَيان ظواهر الأمور.

لقد كان رجلَ خطّةٍ وبرنامج، ربما لم يكن يكتب أو يخطّط أو يرسم رسمًا بيانيًّا لما يفعله بالصورة التي يفهمها الإنسان اليوم، ولكنه كان كمن يسـير علـى نظام ومنهج قد أعده مسـبقًا، وهـذا من دلائل نبوّتـه وصِدْقِ تخلُّقِه بأخلاق الله سبحانه وتعالى.

كان رسـول الله ﷺ فـي العهد الأوّل مـن دعوته يصلّي في الكعبة على الدوام، لا لفضل الصلاة في الكعبة فحسب، بل ربما لغايات كان ينشدها النبي ﷺ من وراء هذا الفعل، وربما كان هذا السبيلَ الوحيد في ذلك اليوم وتلك الحقبة الزمنية لشرح الحق والحقيقة بهويتها وصورتها النقيّة.

كان لا بدّ أن يتكلم مع الشباب، غير أنه كان من قبيل المستحيل أن يذهب إليهم ويتحدّث معهم في أمور تخصّ دعوته؛ لأنهم جميعًا كانت لهم تصرُّفات مفرطةٌ ناتجةٌ عن أَنَفَةِ الشباب، فلو همّ بمحادثاتهم فلربما قابلوه بتصرُّفات غير لائقة، ولذا كان يذهب إلى الكعبة ويريهم بالفعل صلته بربه حالًا لا قالًا؛ ممّا كان يخلق عندهم نوعًا من الفضول وحبّ الاستطلاع، فكانوا يأتون إليه ويسألونه، وعند ذلك كان ﷺ ينتهز الفرصة للحديث معهم عن الدعوة المباركة، ومن ثم كان ﷺ يفضّل الصلاة في الكعبة على غيرها من الأماكن.

وقد تعرض النبي ﷺ لاعتداءات شتّى وهو يصلي لربه في الكعبة، بيد أنه لو صلى في بيته ما تعرّض لمثل هذه الاعتداءات، وهذا يعني أن هناك مغزًى ما من وراء صلاته في الكعبة رغم كلّ المعاناة التي كان يلاقيها، فكم وكم أوذِيَ وأُلقي عليه سلا جزور! وكم مرّةٍ تعرّض للإيذاء والاعتداءِ من قِبَلِ المشركين الذين كانوا يستهدفون قتله.

وذات مرّة توعّد أبو جهلٍ النبيَّ ﷺ بأن يُلقِيَ عليه حجرًا كبيرًا يقتله به، ووعَدَ مَن حوله من صناديد مكّةَ بذلك، وفعلًا أَخَذَ حَجَرًا كَمَا وَصَفَ، ثُمَّ جَلَسَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْتَظِرُهُ، وَغَدَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا كَانَ يَغْدُو، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ وَقِبْلَتُهُ إِلَى الشَّامِ، فَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلَّى بَينَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَجَعَلَ الْكَعْبَةَ بَينَهُ وَبَينَ الشَّامِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَقَدْ غَدَتْ قُرَيشٌ فَجَلَسُوا فِي أَنْدِيَتِهِمْ يَنْتَظِرُونَ مَا أَبُو جَهْلٍ فَاعِلٌ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ احْتَمَلَ أَبُو جَهْلٍ الْحَجَرَ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُ رَجَعَ مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا لَونُه مَرْعُوبًا قَدْ يَبِسَتْ يَدَاهُ عَلَى حَجَرِهِ، حَتَّى قَذَفَ الْحَجَرَ مِنْ يَدِهِ، وَقَامَتْ إِلَيهِ رِجَالُ قُرَيشٍ، فَقَالُوا لَهُ: مَا لَكَ

يَـا أَبَـا الْحَكَمِ؟ قَالَ: قُمْتُ إِلَيهِ لِأَفْعَلَ بِهِ مَـا قُلْتُ لَكُمْ الْبَارِحَةَ، فَلَمَّا دَنَوتُ مِنْـهُ عَرَضَ لِي دُونَـهُ فَحْلٌ مِنْ الْإِبِلِ، لَا وَاللهِ مَا رَأَيتُ مِثْلَ هَامَتِهِ، وَلَا مِثْلَ قَصَرَتِهِ وَلَا أَنْيَابِهِ لِفَحْلٍ قَطُّ، فَهَمَّ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي[٤٩].

وفـي مرة أخـرى "بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَـةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ ابْـنُ أَبِـي مُعَيْطٍ، فَوَضَـعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَـدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّـى أَخَـذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَـالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾! (سورة غَافِرٍ: ٤٠/٢٨)"[٥٠]، في الحقيقة هذا القول الذي ذكره سـيدنا أبو بكـر ﷺ هـو قولٌ تاريخيٌّ، فقد قاله من قبله بعـدّة عصور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وهكذا شـرّف الله ﷻ هذا القول بأن جعله آية في كتابـه الكريم، لم يكن سـيدنا أبو بكر رجلًا قـويّ البدنِ، إلا أن قوّة إيمانه جعلتْ منه إنسانًا لا يُقهر.

فـإن لـم تكن تحرسـه ﷺ عنايـة خاصة لَوَقَـعَ ضحيّةً فـي واحدةٍ من الإيـذاءات التـي تعرض لها في صلاته وعند سـجوده، لكـنّ الله تعالى قد تكفّل برعايته وحفظِه فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٦٧)، لدرجـة أنـه كان لا يهاب الموت ويقدم عليه حتى يصلي في الكعبة، وهذا يعنـي أن فعلـه هـذا كان ينطوي علـى أهميَّةٍ جِدُّ جليلـة، وكأن حياته التي أقسـم الله تعالى بها فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الْحِجْرِ: ١٥/٧٢) كانت هيّنة بالنسبة له.

ولما ضاق الخِناقُ على المسلمين في مكّة خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَـةِ، حَتَّـى إِذَا بَلَـغَ "بَرْكَ الغِمَـادِ" لَقِيَهُ "ابْنُ الدَّغِنَةِ" وَهُوَ سَـيِّدُ

(٤٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/٢٩٩.
(٥٠) صحيح البخاري، المناقب، ٨٩.

"القَارَةِ"، فقَالَ: أَينَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَومِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ المعْدُومَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ؟! فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَنْقَذِفُ عَلَيهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ عَينَيهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ، فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:

فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ ﷻ[٥١]. لقد كان مبدؤهم الوحيد هو عدم الانصراف عن الجهاد بالقول أو الفعل طالما كان هذا ممكنًا؛ لأنهم يعلمون جيّدًا أن حياة الفرد والمجتمع لا تتأتّى إلا بالجهاد، أما من يتخلّون عن الجهاد فمحكوم عليهم بالعفن والفساد، وفي الوقت ذاته فإن الدخول في جوار الله تعالى لا يتأتّى إلا بنصرة دينه، وهذه الحقيقة يبيّنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة مُحَمَّدٍ: ٧/٤٧).

أجل، إن تنصروا دين الله ينصركم الله ويعنكم، ولا يضيعكم ولا يضللكم، فإن كانت لديكم رغبة في عدم الانحراف في حياتكم فاتخذوا من الجهاد والمجاهدة غاية لكم، واجعلوا كل تصرُّفاتكم من طعامٍ وشرابٍ ونومٍ ويقظةٍ خدمة لهذه الغاية؛ حتى تؤدّوا أصغر أنواع الجهاد.

ولنعدْ مجدّدًا إلى مكّة بخيالِنا، ونتعقّب سلوكَ النبي ﷺ:

لقد اشتدّت الوطأة على المسلمين، وأذن لبعض المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لعدم قدرتهم على تحمُّل أذى المشركين، وهذا يعني أن الجهاد عند هؤلاء كان هجرة، لأن الهجرة أصبحت بعد فترة هي عين الجهاد، وباتت الهجرة شرطًا أوليًا لكلّ من يريدون البيعة.

بعد الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة توجّه كلُّ المسلمين إلى المدينة دون استثناء، وفي عهد المدينة اكتسب الجهادُ مفهومًا آخر، فقد وضع الجهادُ في المدينة حجرَ أساسِ الدولة هناك، وكان هذا يتطلّب جهادًا يتوافق مع الظروف الجديدة، لم يكن هناك تَغْيِيرٌ في الماهيّة، بل في الشكل بما يتوافق مع الظروف آنذاك، فأحيانًا يتطلّب الأمرُ السرعةَ

(٥١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥.

وأحيانًا البطءَ، وأحيانًا الانطلاقَ وأحيانًا التوقُّفَ وتنشيطَ عملية الاستعداد علـى الدوام، وهذه هي الأوجه الإستراتيجية للجهـاد، وكان من الطبيعي للغاية أن يتغيّر العصرُ وفقًا لمجريات الأحداث.

لم يستطـع المسلمون أن يضطلعوا بأي جهاد فِعْلِي حتى اللحظة التي أُذِنَ لهم فيها بالجهاد، فقد كانت هذه الفترة فترةَ المقاومة السـلبية، وكان المعتدي والمهاجم على الدوام جبهة الكفر، والمسـلمون هم الذين يقـع عليهم كلّ أنواع الظلم والاضطهاد، ومـع ذلك لم يفكّروا في مقابلة اعتداء المشركين بأيّ شيءٍ لأنه لم يؤذَنْ لهم حتى تلك اللحظة بالجهاد المادّي.

مـرّت فترةٌ هكذا بعد الهجرة، وسـرعان مـا نزلت بعد ذلك الآية التي تأذن للمسلمين بالجهاد.

يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْـعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْـضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْـمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (سورة الحَجِّ: ٢٢/٣٩-٤٠).

إن هـؤلاء الذيـن قيـل لهم أمـس: "لا تلجـؤوا إلـى القوة" قـد تلقّوا -والعدو على الأبواب- الإذنَ بالجهاد المادي، وأصبحوا يترقّبون الفرصة التي يفعّلون فيها هذا الإذن، ثمّ بعدَ ذلك سرعان ما تحوّل هذا الإذن إلى أمر، واضطرّ المؤمنون إلى الجهاد وإشهار سيوفهم في وجوه أعدائهم.

كان المسـلمون يسـيرون إلى غـزوة بدر في فرح وسـرور وكأنهم قد تلقّـوا دعـوةً مـن الجنـة، وكأنهم ليسـوا هم الذيـن سـيُعرّضون أرواحَهم

للخطر بعد قليل، كانوا جميعًا يحتفون بالموت في هذا السبيل؛ فلم يتردّد أحدٌ منهم في تلبية الدعوة إلى الجهاد، غير أن المنافقين كانوا يُشَتّتون شملَ المسلمين كعادتهم دائمًا، يتركون النبي ﷺ في المعركة ويذهبون، وكانوا أحيانًا لا يشتركون في الحرب مع المسلمين، فهؤلاء لم تَصْفُ سرائرهم، ولم يستطيعوا أن يتغلّبوا على نفاق قلوبهم، عند القتال يتخلّون عن أصحابهم وينزُوون عن المعركةِ في ناحية ما، ويشتغلون بمتعهم الشخصية. أجل، إن هؤلاء قد ضعفت نفوسهم، وتدنّت أرواحهم، فكانوا يفعلون ما تقتضيه طبائعهم.

أما أولئك الذين آمنوا برسول الله ﷺ قلبًا وقالَبًا فلم يتخلّ واحدٌ منهم عن موقعه، وبتعبير آخر: وصلوا إلى الله بالجهاد في سبيله، فلما وصلوا كانوا صُبُرًا عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقًا عِنْدَ اللِّقَاءِ، أما المرتدّون الذين ضلّوا الطريق فكانوا مساكين؛ عجزوا عن إدراك هذه الحقيقة، ولم تمتزج أرواحهم بها.

والواقع أن هؤلاء بشرٌ أيضًا، وكل إنسان قد يعتبر الموتَ أمرًا كريهًا بغيضًا، ومن ثم لم يتجاهل القرآن الكريم هذا الشعور عند الإنسان فقال مخاطبًا إيّاه: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢/٢١٦).

ورغم طبيعة الإنسان تلك إلا أن المؤمنين قد أذعنوا لأمر رسول الله ﷺ وأطاعوه دون قيد أو شرط، وهذه التبعية كانت سببًا في نزول فيوضات الله تترى عليهم، وإحرازهم النصر على التوالي.

وهكـذا وبمـرور الأيـام ازدادت قـوة المؤمنيـن، وسـمعت القبائـلُ المجـاورة بالنصـر الـذي أحرزوه في وقتٍ يسـيرٍ، وبينمـا كان هذا النصر مصدر سعادة للمؤمنين كان غمًّا وكدرًا بالنسبة للكافرين.

ويسـتمر الجهاد كحلقات السلسلة المترابطة، ويجد المؤمن فيه دائمًا طمأنينته وحيويته، ومتى ما تخلى عن الجهاد فليضـع موته نصبَ عينيه.

أجـل، إن المؤمـن كالشـجرة المثمـرة، تحافـظ على حيويتهـا طالما أثمرت فإن لـم تثمر جفت ويبست.

أمعنـوا النظرَ في وجوه جميعِ التُّعسـاء والمتشـائمين يتراءى أمامكم أناسٌ قد تخلّوا عن الجهاد، ولأنهم لم يُبَلِّغوا الحقّ والحقيقة إلى الآخرين قطـع الله فيوضاتـه عنهم، فظلّوا فـي ظلمةٍ حالكةِ السـواد، ثم انظروا إلى المجاهديـن جميعًا تجدوهم في نشـوةٍ وحبور، وداخلُهـم مفعمٌ بالحيويّة والنـور، وهمُّهـم هـو مضاعفة الثـواب والأجـور، كل جهاد يولّـد جهادًا جديدًا لديهم، وبذلك تتشكل الدائرة الصالحة، وكل خير هو وسيلة لخير جديد؛ لذا فهم يجولون ويصولون في الخيرات.

وهـذا ما تبينه هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: ٦٩/٢٩).

ثمّة سـبل متعدّدة للوصول إلى الله، وهذه السـبل عددُها بعددِ أنفاس المخلوقات، والله ﷻ يهدي المجاهدين في سـبيله إلى أيّ واحدٍ من هذه السبل يسلكون، فَيُبْرِز لهم كلّ سُبُلِ الخير ويقيهم جميـعَ سُبُلِ الشر.

وسبيل الله هو الصراط المستقيم، ومن سلَكَهُ سلكَ الطريق الوسطَ في كل شيء، وكما يتّخذ الإنسان طريقَ الوسط في الغضب والعقل والشهوة

فإنّه يواظب على هذا الطريق في الجهاد وأداء العبادات أيضًا، وهذا يعني أن الله تعالى يهدي الإنسان إلى سبيله.

إن الجهاد الموجّه إلى الخارج مهما بلغَتْ فيه التضحية والفداء فإنه بمجموعه يُعدّ ضمنَ الجهاد الأصغر، وكونه جهادًا أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر، وإلّا فليس فيه جهة صغيرة قطّ، بل العكس هو الصحيح لأن ما يُكسبه من نتيجة هي عظيمة للغاية، وكيف لا تكون عظيمةً وهي ترشح المجاهدَ للدخول إلى الجنة! وإذا ما استشهد فله الحياة الكاملة في البرزخ، ولا شكّ أن غاية الجهادِ بكِلا نوعيه الأصغرِ والأكبرِ هي نَيل رضا الله تعالى، وكيف يكون صغيرًا جهادٌ له هذه النتائج الجليلة والغاية النبيلة؟!

فالجهاد الأصغر إذًا هو تنفيذ أوامر الدين عمليًا وأداء الإنسان ما كُلّفَ بهِ، أما الجهاد الأكبر فهو أداء كلِّ هذا بوعيٍ وإخلاصٍ، ومراقبةٍ دائمةٍ للنفس ومحاسبةٍ لها، فضلًا عن ذلك هو إعلان الحرب على جميع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تُبطِئُ به عن الكمالات من حقدٍ وحسدٍ وأنانيةٍ وغرورٍ وكِبرٍ وفخرٍ وأمثالها من الأمور التي جُبلت عليها النفسُ الأمّارة بالسوء، فهذا الجهاد عسيرٌ وشاقٌّ ولهذا سُمّي بالجهاد الأكبر.

والإنسان طالما هو في حَومَةِ الجهاد المادّي الأصغر لا يجد فرصة -في أغلب الأحيان- للتفكير في نفسه، وهذا هو الخطرُ الأول، أما الخطرُ الثاني فهو الانحلال والفساد الذي يظهرُ جليًا عندما يتخلّى الإنسان عن الجهادِ الأصغر.

فالشخص المعرّض لمثل هذا الموقف تحيطُ به الأفكارُ الفاسدة من جهاته الأربع، وتتعرّض حياته المعنوية إلى الشلل، ولهذا يُصبح من الصعوبة بمكان أن يحافظ الإنسان على نفسه من دون القيام بالجهاد المادي، ولهذا قال الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات "**رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأصْغَرِ إلىَ الجِهَادِ الأكْبَرِ**"، إشارة إلى هذا الموقف العصيب للغاية.

والحديث الشريف يعني: أننا آمنا وشرُفنا بالجهاد والاشتراك في الغزوات، وربما غنمنا بعض الغنائم... وبعد ذلك ربما يسري إلى نفوسنا حبّ الدعة والراحةِ والارتخاءِ بل ربما يراود بعضَنا الشعورُ بشيءٍ من الإعجاب، فيتسرّب من نفوسنا الأمارة -بطرقٍ شتّى- إلى أرواحنا ويفسدها؛ بمعنى أن مخاطر مهلكة كثيرة تنتظرنا بعد الجهاد المادّي، فالنضال الذي سنخوضه بعد ذلك هو أصعب وأكثر جدّية من سابقه.

فالمخاطب بهذا الحديث الشريف -فضلًا عن الصحابة الكرام- هم الذين يأتون من بعدهم، وبالتالي فنحن منهم، ولهذا ينبغي أن نظلّ حذِرِين جدًّا في استعمال هذا الميزان، فإن كان الإنسان يوجّه حركاته في الجهاد إلى الخارج فقط بعيدًا عن مراقبة النفس، فهذا يعني أنه على شفا حفرةٍ من الخطر الجسيم.

كان أرباب عصر السعادة كالأُسْدِ في ساحة الوغى، فإذا ما أرخى عليهم الليل سدوله تحوّلوا إلى عبّادٍ وزهّادٍ، تنثني أصلابهم بمثاني القرآن، يقضون ليلهم في عبادة وذكر لله تعالى، فَيَصِلُون كلالَ ليلهم بكلالِ نهارهم.

فـإن كان الأمر هكذا فإن اعتبار الجهاد الماديّ هو كلّ شـيءٍ، وغضّ الطـرف عـن الجهاد الأكبر أو هدم أهمّ ركنٍ في الدين؛ أي الجهاد الأكبر، وتحويله إلى رهبانيّة ليس إلا خيانة لروح الدين، وما حياة سـيد الأنام ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بخافيةٍ عنا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ: "**مَـنْ رَجُـلٌ يَكْلَؤُنَا لَيلَتَنَـا هَذِهِ؟**" فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِـنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَـارِ، فَقَـالَا: نَحْـنُ يَا رَسُـولَ اللهِ، قَالَ: "**فَكُونُـوا بِفَمِ الشِّـعْبِ**"، قَالَ: "وَكَانُوا نَزَلُوا إِلَى شِعْبٍ مِنَ الْوَادِي"، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ، قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيكَ أَنْ أَكْفِيَكَهُ؟ أَوَّلَهُ أَو آخِرَهُ؟ قَـالَ: اكْفِنِـي أَوَّلَـهُ، فَاضْطَجَـعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَـامَ، وَقَامَ الْأَنْصَـارِيُّ يُصَلِّي، وَأَتَى الرَّجُلُ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَومِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَـهْمٍ آخَرَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَـهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُـمَّ رَكَـعَ وَسَـجَدَ، ثُـمَّ أَهَبَّ صَاحِبَـهُ، فَقَالَ: اجْلِـسْ فَقَدْ أُوتِيـتَ، فَوَثَبَ، فَلَمَّـا رَآهُمَـا الرَّجُـلُ عَـرَفَ أَنْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ فَهَـرَبَ، فَلَمَّـا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَـا بِالْأَنْصَـارِيِّ مِـنَ الدِّمَاءِ، قَـالَ: سُـبْحَانَ اللهِ، أَلَا أَهْبَبْتَنِي قَـالَ: كُنْتُ فِي سُـورَةٍ أَقْرَؤُهَا، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا، فَلَمَّا تَابَعَ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَأُرِيتُكَ، وَايْمُ اللهِ لَولَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُـولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا، أَوْ أُنْفِذَهَا"(٥٢).

بمعنـى أن الاطمئنان وسـكينةَ القلـب قد غمراه، وكأنّ القـرآنَ يتنزّل عليـه وهـو يتلوه فـي الصـلاة، وكأن جبريل عليه السلام ينفثه في روعه، فينتشـي بنشوة الوجد حتى لا يجد أيّ أَلَمٍ للسهم الذي انغرزَ في جسده.

(٥٢) مسند الإمام أحمد، ٥١/٢٣.

وهـذا هو موقـفُ من جمـعَ بين الجهادين، الأصغـر والأكبر، بل هذا هو الوجه الحقيقيّ للجهاد.

ولقد اتّحد في شـخصِ النبيّ ﷺ أعلى وأرقى نقطةٍ من كِلا الجهادين فـكان ﷺ أنموذجًـا ومثالًا للشـجاعة فيَروي سـيدنا عليّ الكـرّارُ ﷺ وهو البطل الشجاع باعتراف الجميـع ويقول: "كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَومُ الْقَومَ، اتَّقَينَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ القَومِ مِنْهُ"(٥٣).

ومثلًا في غزوة حنين "...طَفِقَ رسولُ الله ﷺ يَرْكُض بَغلَته قِبَلَ الكُفّار قال عبّاسٌ وأنا آخذٌ بلجام بَغلة رسـول الله ﷺ أَكُفُّها إرادةَ أنْ لا تُسْـرِعَ... وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطّلب يقُودُ به فنزل فاستَنْصر وقال:

**أنا النّبيُّ لا كذِبْ * أنا ابنُ عبدِ المُطَّلب**

قال الراوي: "كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ"(٥٤).

فهذا المثال الرائـع ﷺ والأنموذج الكامل للشجاعة والإقدام والبطولة فـي ميـدان المعركة، أما في ميـدان العبادة فكان في منتهـى العبودية حتى يُسـمـع لصـدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَلِ من البكاء، ويدفـع مَن حوله إلى رقّة القلـب كلّما سـكب الدموع، وكان يصوم أيّامًـا حتى يُقال إنه لا يُفطر، بل كان يصـوم حتـى صوم الوصـال، وكان يقيم الليل كلَّـه أحيانًا حتى تتورّم قدمـاه، فعَـنْ عَائِشَـةَ ﷺ: أَنَّ نَبِـيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُـومُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّـى تَتَفطَّرَ قَدَمَـاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَـةُ ﷺ: لِـمَ تَصْنَـعُ هَذَا يَا رَسُـولَ اللهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "**أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا**!"(٥٥).

(٥٣) مسند الإمام أحمد، ٢/٤٥٣.
(٥٤) صحيح مسلم، الجهاد والسير، ٧٦-٧٩.
(٥٥) صحيح البخاري، تفسير القرآن، سورة الفتح، ٢.

تأمّلوا إنسانًا يعتكِفُ متخفّيًا في غار "ثور" من دون مبالاة لحيّات أو هوام، وعندما يبلغ المشركون بابَ الغار يجزع سيدنا أبو بكر ﵁ خشيةَ أن يطّلع عليهم أحد، فيقول له رسول الله ﷺ في منتهى الاطمئنان والسكينة: "**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا!**"(٥٦).

فهذا الإنسان الذي لا يعرف معنى الخَوف أبدًا عندما يسمع القرآن يرقّ قلبه حتى تنهمر الدموع منه وتكاد تتقطّع أنفاسه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: "**اِقْرَأْ عَلَيَّ**"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: "**نَعَمْ**"، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤١/٤)، قَالَ: "**حَسْبُكَ الآنَ**"، فَالْتَفَتُّ إِلَيهِ، فَإِذَا عَينَاهُ تَذْرِفَانِ(٥٧).

إنه إنسان القلب الحيّ والضمير اليقِظ، وهو السابق الأول دومًا في الجهاد المادّيّ والمعنوي، فحينما يحثّ أمته على الاستغفار يكون هو في المقدمة ويقول: "**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ فِي اليَومِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**"(٥٨).

إن الذي يظفرُ في الجهاد الأكبر فلا بدّ وأن يفوز بالجهاد الأصغر غالبًا، غير أنه لم يُر قطُّ أن من خسرَ الجهادَ الأكبرَ قد فازَ بالجهادِ الأصغرِ، وحتى وإن استطاع أمثال هؤلاء الوصول بالخدمة والعمل إلى مرحلة معينة فمن المتعذّر عليهم الوصولُ إلى النتيجة المنشودة.

عن السيدةِ عائشة ﵂ قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي قال النبي ﷺ: "**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيلَةَ لِرَبِّي**" (يا له من إنسان غايةٍ في اللطف لدرجة

(٥٦) صحيح البخاري، المناقب، ٣٠؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ١.
(٥٧) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٣٣؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٤٧-٢٤٨.
(٥٨) صحيح البخاري، الدعوات، ٣.

أنــه يســتأذن زوجَتَهُ فــي قيامه للتعبّــد لربّه! ولا غَــرْوَ ولا عجب فالأصالةُ تجري في عروقه ﷺ) قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، فَقَامَ فَتَطَهَّــرَ، ثُــمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمْ يَــزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، ثُــمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَــكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيلَةَ آيَةٌ وَيلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٩٠)"[٥٩].

وأحيانًــا كان رســول الله ﷺ يقــوم إلى عبادتــه دون أن يوقظَ زوجته أو يســتأذنها؛ فعَــنْ عَائِشَــةَ ﵂ قَالَــتْ: فَقَدْتُ رَسُــولَ اللهِ ﷺ لَيلَةً مِــنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْــتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيهِ وَهُوَ فِي الْمَسْــجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُــوَ يَقُولُ: "**اللهُمَّ أَعُــوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَــخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ**"[٦٠].

ها هو رسول الله ﷺ، وها هو جهاده الأكبر، وذلك هو عمقه المعنوي، فإن كان ﷺ هكذا أيمكنُ أن يكون صحابته غير ذلك؟ فلا بدّ من التشبّه به حتى يتسنّى الفوز بالقرب منه، ولقد كان الصحابة ﷺ على وعي تامٍّ بهذا الأمــر، حتــى كان منهم من أمثال "ثَوبَــان" ﵁ الذي خطر بباله يومًا مفارقة الرسول ﷺ فانقطعت شهيّته واستولى عليه الهمّ والغمّ.

ورُوي أن "ثوبان" مولى رسول الله ﷺ كان شديدَ الحبّ لرسول الله ﷺ قليــلَ الصبــر عنه، فأتاه ذاتَ يومٍ وقد تغيّر لونــه، يُعرف الحزن في وجهه،

(٥٩) صحيح ابن حبان، ٢/٣٨٧.
(٦٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢.

فقال له رسول الله ﷺ: "**مَا غَيَّرَ لَوْنَكَ؟**" فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك أستوحشُ وحشةً شديدة حتى ألقاك، وإني لأذكرك فما أصبرُ حتى آتي فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلتَ الجنة رُفِعْتَ مع النبيّين، وإن دخلتُها لا أراك، فأنزل الله تعالى:

**﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾** (سورة النِّسَاءِ: ٦٩/٤) فدعا به فقرأها عليه(٦١).

وهذا مقتضى قول النبيّ ﷺ: "**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**"(٦٢).

إن محبّة المرء تكون بالتشبُّه به، وجعلِ حياته أنموذجًا يُحتَذى به ولا يُحادُ عنه، والصحابة الكرام كانوا حقًّا على هذا الشعور تمامًا.

كان سيدنا عمر الفاروق ﷺ يتلظّى شوقًا طوال حياته للفوز بمصاهرة رسول الله ﷺ، وقد أراد أن يحقق هذا الأمر عن طريق الزواج بالسيدة فاطمة ﵂، لكنها كانت من نصيب سيدنا علي كرم الله وجهه، فلما لم يجد عمر ﵁ بدًّا تزوج من أم كلثوم ابنة سيدنا علي ﵁، ولو أراد لتزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطي ولن يجد في هذا عناءً أو مشقةً، بل إنّ ذلك في متناول يده، غير أن همّه لم يكن مجرّدَ الزواج بل توثيقَ الصلةِ برسول الله ﷺ، ولذا كان يسعى حثيثًا خلف حسبٍ ونسبٍ ربما يكون في صالحه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

حقًّا لقد كانت علاقته المعنويّة برسول الله ﷺ وطيدةً للغاية وفي أعلى درجاتها، ولقد رُئيَ النبي ﷺ وأبو بكرٍ عن يمينه وعمر عن شماله

(٦١) أبو الليث السمرقندي، **بحر العلوم**، ٣١٦/١؛ الواحدي: **أسباب النزول**، ١٦٠/١.
(٦٢) **صحيح البخاري**، الأدب، ٩٦؛ **صحيح مسلم**، البر، ١٦٥.

وهـو يقول: "**هَكَذَا نَكُونُ ثُمَّ هَكَـذَا نَمُوتُ ثُمَّ هَكَذَا نَبْعَثُ ثُمَّ هَكَذَا نَدْخُلُ الْجَنَّةَ**"(٦٣).

غير أن سـيدنا عمر ﷺ كان يريد أن يوثّق صلته المادية أيضًا برسـول الله ﷺ، ومن هذا المنطَلَقِ زوّجَ ابنته السـيدة حفصة ﷺ بالنبيّ ﷺ، وتزوج هو بحفيدة سيدنا رسول الله ﷺ؛ أم كلثوم ابنة علي وفاطمة ﷺ، ولقد سعد سيدنا عمر الفاروق ﷺ أيّما سعادةٍ بهذه الصِّلة والمصاهرة.

ذات يـوم قالـت لـه ابنته أمنـا حفصـة ﷺ: "أَلَا تَلْبَسُ ثَوبًا أَلْيَـنَ مِنْ ثَوبِكَ، وَتَأْكُلُ مِنْ طَعَامٍ أَطْيَبَ مِنْ طَعَامِكَ هَذَا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيكَ الْأَمْرَ، وَأَوسَـعَ إِلَيكَ الرِّزْقَ؟ فَقَالَ: سَأُخَاصِمُكِ إِلَى نَفْسِكِ، فَذَكَرَ أَمْرَ رَسُولِ الله ﷺ وَمَـا كَانَ يَلْقَـى مِنْ شِـدَّةِ الْعَيْشِ، فَلَمْ يَزَلْ يَذْكُـرُ حَتَّى بَكَتْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَأُشَـارِكَنَّهُمَا فِي مِثْلِ عَيشِهِمَا الشَّـدِيدِ لَعَلِّي أُدْرِكُ مَعَهُمَا عَيشَهُمَا الرَّخِيَّ"(٦٤).

ونحـن نُطْلِـقُ على هـذا الجهاد الأكبر أو الجهـاد المعنوي، وهذا هو سـبيل رسـول الله ﷺ والصحب الكرام ﷺ، إنهم في حضور دائمٍ مع الله واتصـالٍ مسـتمرٍ وثيقٍ معه، كانت عباداتهـم وأذكارهم من الكثرة والعمق بحيث من يشاهدهم يحسب أن ليس لهم شغل يشغلهم غير العبادة والذكر، هذا مع كمال إيفاء أمورهم الدنيوية والمعيشية حقّهما من الاهتمام.

نعـم، إنهـم يمثلون خلاصة الإخلاص ولبّه، إذ ما كانوا يعملون عملًا إلّا وفـق مرضاة الله سـبحانه، فـكان كلّ عملهم في مراقبة عميقة دائمة لله، فعـن عُمَرَ الـمَخْزُومِيّ قَالَ: "نَادَى عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ ﷺ بِـ"الصَّلاةُ جَامِعَةٌ"،

(٦٣) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٢٠٥/٢٢.

(٦٤) البيهقي: **شُعب الإيمان**، ١٦٨/١٣؛ الحاكم: **المستدرك**، ٢١١/١.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ وَكَثُرُوا؛ صَعِدَ الْمِنْبَرَ؛ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرعَى عَلَى خَالاتٍ لِي مِن بَنِي مَخزُومٍ، فَيَقْبِضْنَ لِي القَبْضَةَ مِنَ التَّمْرِ أَوِ الزَّبِيبِ، فَأَظَلُّ يَومِي وَأَيَّ يَومٍ، ثُمَّ نَزَلَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ: يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ! مَا زدت على أن قئمت نَفْسَكَ! -يَعْنِي: عِبْتَها- فَقَالَ: وَيحكَ يَا ابْنَ عَوفٍ! إِنِّي خَلَوتُ؛ فَحَدَّثَتنِي نفسي؛ قالت: أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَمَنْ ذَا أَفْضَلُ مِنْكَ؟ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعَرِّفَهَا نَفْسَهَا"[٦٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن أباه حملَ قربةً على عاتقه فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين ما حَمَلَكَ على هذا؟ قال: إن نفسي أعيتني فأردت أن أذلها[٦٦]. وَكَانَ عُمَر بْن عَبْد العَزيز رحمه الله إِذَا كتبَ كتابًا فاستحسنَ لفظَهُ مزَّق الكتابَ وغيّره[٦٧] حتى لا يقع في فخّ الشرور النفسية وأمراضها.

إن جهاد هؤلاء الأطهار الذين بلغوا الكمال الروحي وتكاملوا به لن يبقى بلا ثمر، لأنه في سبيل الله وعلى هذا فالذين يتباهون ويتفاخرون بأعمالهم باسم الجهاد هنا وهناك، ولم يصلحوا شؤونهم الداخلية ولم ينجوا من الرياء والعجب والغرور والكبر؛ أعمالهم تخريبًا أكثر من كونها تعميرًا، بل حتى لو بلغوا مبلغًا معيّنًا في مرحلة ما؛ فلن يبلغوا الغاية والنتيجة قطعًا.

وهناك آيات وأحاديث تجمع بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، ومن ذلك سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النَّصر: ١١٠/١-٣).

(٦٥) الدينوري: **المجالسة وجواهر العلم**، ٤٦٦/٤؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣١٥/٤٤.

(٦٦) محب الدين الطبري: **الرياض النضرة**، ٣٨٠/٢.

(٦٧) القشيري: **الرسالة القشيرية**، ص ٢٤٧.

فهذه السورة تُبَشِّرُ بمجيء نصر الله وفتحه حينما يدخل الناس أفواجًا في دين الله، وهذا ما حصل بالفِعلِ، فحينما أُزِيلَت العوائقُ أمامَ الجهاد الأصغر من خلال الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ وتبليغِ الحقِّ، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا جاء الأمر الإلهي: "**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**"؛ لأن جميع هذه الأمور ما هي إلّا إحسانًا ونعمةً إلهيّةً بحتةً، إذ هو الذي خلقها كلّها، فتأمّلوا هذا وسبّحوا الله وقدّسوه تعالى.

فعلى الإنسان الذي انتصرَ على الأعداء في الخارج، أن ينتصِرَ على عدوّه في الداخل أيضًا وهو نفسُه التي بين جنبيه، ليتمّ جهادُه ويكتمل.

وفي ضوء هذا تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ بعد نزول هذه السورة يردّد باستمرار: "**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيكَ**"(٦٨).

وفي حديث آخر يجمع الرسول ﷺ هذين الجهادَين معًا فيقول: "**عَينَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَينٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَينٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله**"(٦٩).

إن جهاد مَن يسهر على الحدود والثغور ويرابط في ميدان الحرب، وفي أخطر المواقع جهادٌ ماديّ، فالذي يؤدّي هذا الجهاد لا تمسّ النارُ عينَه، وعينٌ أخرى تحقّق الجهاد المعنوي الأكبر، وهي العين التي تبكي من خشية الله، فهاتان العينان سواءٌ في نَيل البشارة النبويّة.

نعم، يستحيلُ لدى الرحمة الإلهية ووعد الله القاطع أن تمسّ النار هاتين العينين كاستحالة عودة اللبن إلى الضرع! قال ﷺ: "**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ**

(٦٨) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٨.
(٦٩) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢.

**بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**"(٧٠)، وإنّ واقعَ من يجاهد في سبيل الله أشعثَ أغبرَ لا يختلف عن هذا، فقد بشّر الرسول الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة أن النار لا تمسّ من اغبرّت قدماه في سبيل الله، فعن عَبَايَة بْن رِفَاعَةَ قَالَ: أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الجُمُعَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**"(٧١).

نعم، لا تمسّ النار تلك الأعين التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطةً على ثغور الأمّة، فالذي ينذر نفسه لهذا النوع من الرباط، ويجابه المهالك التي تعصف بالبلاد، ويتصدى لها بإنشاء مؤسّسات يتربى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان، ويتجافى عن حظوظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين، ويهتم براحة الآخرين وعيشهم الهنيء؛ فهؤلاء لا تمسّ أعينَهم النارُ أبدًا.

وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالًا ونقاشًا هنا وهناك؛ إن لم يراقبوا أعمالهم ويقوّموها بموازين الجهاد الذي ينادون به؛ فإنهم لا يعملون إلّا لقتل الوقت وخداع أنفسهم، فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم، ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة، ولم يُمرّغوا أنفَ الرياء، ولم يسحقوا نزعةَ الفخر والخيلاء تحت أقدامهم، ولم يقتلعوا من أرواحهم شوكة الكِبر والرياء؛ فأعمالهم لا تُجدي فتيلًا سوى إحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان، ويقبعون في زواياهم، وينظرون إلى الجهاد نظرةً يتيمةً من حيثيّته المعنويّة قائلين: لا يصحّ الانشغال بالغير قبل جهاد النفس... فهؤلاء الذين يَرون إحرازَ درجات

(٧٠) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ٨؛ سنن النسائي، الجهاد، ٨.

(٧١) صحيح البخاري، الجمعة، ١٦؛ سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ٧؛ سنن النسائي، الجهاد، ٩.

معنوّية لأنفسهم ولا يعملون على إزاحة العوائق بين الناس ورب الناس، ولا يشاركون في عمليات إيصال العباد إلى ذواتهم، هم بلا شك على خطإ واضح، لأنّهم يخلطون الإسلام بالروحانية، إن الفكر المهيمن على أولئك القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب هو: أن كل إنسانٍ يحاسَبُ بمفرده "فكل شاة برجلها ستناط" كما هو المثل العامي المشهور، وإن من لم يُصْلِحْ نفسَهُ سيعجزُ على إصلاح غيره؛ لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أوّلًا.

فنقول لمن استهواه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظنّ أنه أنقذ نفسَه فقد وقع من فوره في أخطر دوّامة، فمن يطيق أن يدّعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سورة الْحِجْرِ: ١٥/٩٩). نعم، إن الإنسان مكلّفٌ بالعبادة حتى الرمق الأخير، فلا يستطيع أن يُحْجِمَ عن أي عمل كان متعلِّقًا بالعبودية لله، حتى يُرفع الستار ويُدعى إلى العالم الآخر.

فكيف يمكن لمن تُناط به دائمًا مهمة التكليف هكذا أن يقول إنه أنقذ نفسه؟

إذًا فإن جهاد الإنسان مع نفسه، وسعيَه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولتَه إصلاحها وتقويمها؛ سيدوم ما دام فيه قلبٌ ينبض.

نحن إذًا مضطرّون إلى العيش الدائم بين الخوف والرجاء، فكما لا يخطر ببال المؤمن الاطمئنان إلى النتيجة فليس من صفاته القنوط أيضًا، إلّا أن الخوفَ لا بدَّ أن يكون أرجح في ميزانه في الدنيا، تأمّلوا عمرَ الفاروق رضي الله عنه وهو يجودُ بأنفاسه الأخيرة؛ لَمَّا نَظَرَ إِلَيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما بَكَى،

فَقَالَ: "أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: تَشْهَدُ لِي بِذَلِكَ؟" قَالَ الراوي (وهو ابن عمر ﵄): فَكَأَنَّهُ كَعَّ، فَضَرَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﵁ مَنْكِبَهُ، فَقَالَ: "أَجَلْ، فَاشْهَدْ، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيفَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ إِسْلَامُكَ عِزًّا، وَوِلَايَتُكَ عَدْلًا، وَمِيتَتُكَ شَهَادَةً، فَقَالَ: لَا وَاللهِ لَا تَغْرُونِي مِنْ رَبِّي وَدِينِي، ثَكِلَتْ عُمَرَ أُمُّهُ إِنْ لَمْ يَرْحَمْهُ رَبُّهُ"(٧٢).

وعلى ذلك فمن الخطإ الجسيم أن نفسّر مسألةً تتطلّب جهدًا وسعيًا متزامنًا مع العمر كله على أنها عائقٌ ومانعٌ من الجهاد، وهذا أمر لا بدّ من الوقوف عنده كثيرًا.

وحمادى القول وخلاصته: إننا إذا تناولنا الجهاد بنوعيه الأكبر والأصغر كلّ على حِدة لَتَبَيَّنَ لنا أن أحدهما ينجم عنه الثرثرة والجدليّة والفوضى، والآخر ينشأ عنه الذل والمسكنة والخمول والكسل، أما الجهاد الحقيقي فهو ما يتأتّى بتوحيد كليهما معًا؛ وهذا هو مفهوم الجهاد عند الرسول ﷺ والصحابة ﵃.

لم يفهم أحدٌ من المرشدين الحقيقيّين العظماء الذين ربّاهم الإسلام الجهادَ على وجهٍ واحدٍ من هذين الوجهين، فلم يتخلّفوا عن نشرِ الحقّ والصدع به قطّ حتى لو كانوا وراء قضبان السجون، بل أناروا ليلَهم كَنَهَارِهم، ولم يرخوا عنان العلاقة القوية مع ربهم، ولم يهملوا قطعًا دائرة القلب مهما بلغت سعة خدماتهم، بل أصبح كل ما استشعروه في هذا المجال وسيلة لظهور ثمرة إيمانية جديدة لديهم، فعاشوا دومًا بشعور الإحسان الإلهي، مستحضرين مراقبة الله لهم كلَّ آن، ففازوا بعملهم هذا بالقرب منه ﷻ إلى أن شهِدوا أنّ الله تعالى هو بصرهم الذي يُبصرون به

(٧٢) أبو بكر بن الخلال: السنّة، ص ٢٩٤.

ويدَهم التي يبطشون بها... فبارك الله فيهم حتى عُدّ الفرد منهم بألف، ونمت أعمالهم وبورِكت مثلَ حبّةٍ أنبَتَتْ سبعَ سنابل في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبَّة.

إن إنساننا في الوقت الحاضر، إن كان يريد أن يجاهد في سبيل الله حقّ جهاده وبما يرضيه -وهذا ما يجب عليه- عليه في نفس الوقت الذي ينشرُ فيه الحقَّ ويُبلِّغ الحقيقة للآخرين أن يراقب نفسَه مراقبةً جادّةً ويحاسب رغباته حسابًا عسيرًا، وإلّا فهناك احتمال قويّ بأنه يخادع نفسه، وعند ذلك لا ينتفع بعمله ولا ينتفع به غيره.

على المجاهد أن يكون خالصًا مخلصًا صادقًا، يحمل من الإخلاص ما يجعله يُؤْثِرُ الله على كلِّ ما سواه، وبذلك يكون الجهاد مثمرًا وباقيًا، فهو بدلًا من أن يملأ عقولَ الآخرين بالغثِّ والسَّمينِ من المعلومات، عليه أن يقرّ في قلوبهم وعقولهم الإخلاص وحسن النية وروح المحاسبة الداخلية والشعور بأن يكونوا من رجال القلوب.

نعم، الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج، ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه، فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر، فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عمليًّا، فيتولد من أحدهما الذلّ والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب، ونحن الآن ننتظر ولادةَ روحٍ محمَّديّةٍ مجدّدًا، وهذا لا يمكن إلّا باتباع الرسول ﷺ في هذا الأمر كما في كلّ أمرٍ.

فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم! وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضمّ العمل لإنقاذ غيرهم!

## محنة التفرّق وفتنة الخلاف الداخلي

**سؤال: بأي شيءٍ نُمتحَن في الدنيا؟ هل نُمْتَحَنُ بفساد وحدتِنا وتفريقِ كلمتنا؟ وهل امْتُحِنَ الصحابةُ بعضُهم بِبَعْضٍ؟**

**الجواب:** يقول الله تعالى في آية كريمة ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ**﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ٦/٥٣)، إذًا فإن الناس يمتحنون بعضهم ببعض، ونستطيع درج هذه المسألة في عدّة نقاط:

**الأولى:** يُبعث من بين الناس نبيٌّ، ويكون إرسال هذا النبيّ امتحانًا للناس من حوله، وحدث هذا عند بعثة رسولنا ﷺ؛ لأن بعضَ الناس قالوا آنذاك: أنّى يُبْعَثُ يتيمُ أبي طالب نبيًّا وهو الفقير الذي لا يملك أتباعًا أقوياء، مع وجود مَن هو أولى منه مثل مسعود بن عروة في الطائف، أو الوليد بن المغيرة في مكة؟

ومع أن قريشًا قبيلة عريقة، لكنها ليست بأقوى القبائل؛ والنبي يجب أن يُبْعَثَ في أقوى القبائل لكي تستطيع قبيلته الدفاعَ عنه وحمايته.

كما قالوا: ﴿**مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا**﴾ (سورة الفُرْقَانِ: ٢٥/٧).

ولا يزال الامتحان قائمًا لبعض الناس حتى في وقتنا الحالي، إذ يقولون: كيف يكون مَن تزوج تسع زوجات نبيًّا؟

تتّفق كلّ هذه الأقوال وأشباهها في النقطة نفسِها؛ وهي أن الناس يمتحنون بعضهم ببعض، والامتحان هو غاية مجيء الناس إلى الدنيا، إذ تتمّ غربلتهم حتى يتميّز أصحاب الأرواح الطيبة عن أصحاب الأرواح الخبيثة، ولكي يتميز الماس عن الفحم، ويظهر بوضوح مَن يحمل روحًا شيطانيًّا ومَن يحمل روحًا ملائكيًّا، وهكذا تتحقّق الغاية من خلق الدنيا.

ولو لم يكن هناك مثل هذا الامتحان لما تميزت روح أبي بكر ﷺ الشبيهة بالماس عن روح أبي جهل السوداء سواد الفحم؛ أي لولا هذا الامتحان لما لمعت الحقيقة الأحمدية ولمَا ظهرت ولا انجلت ولا انقلبت إلى شمسٍ تبهر الأعين.

عندما تناول الرسول ﷺ الناسَ شبّههم بالمعادن "**خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ، إِذَا فَقُهُوا**"(٧٣)، فالإسلام يتناول الناس ويذيبهم ويشكّلهم مدّةً معيّنةً في بوتقات معيّنة، ثم يوحّدهم مع أرواحهم ليصلوا إلى ذواتهم، أي يُخرج الخاصّيّة الكبرى التي تكمن في ماهيّتهم من القوّة إلى الفعل، وهذه الخاصّيّة هي كون الإنسان مرآةً جامعةً لتجلّي أسماء الله.

ولكن المعادن تحتفظ على الدوام بخصائصها، فالذهب يبقى ذهبًا والفضّة تبقى فضّةً والنحاس يبقى نحاسًا، والفرق هو في تخلّص هذه المعادن من شوائبها لتكون معادن صافيةً ونقية، والمحن والابتلاءات هي عملية تخليص معدن الإنسان وتصفيته مما علِقَ به من الأشياء الغريبة عنه، والوصول بكلّ إنسانٍ إلى أعلى قمّة في استعداداته وقابليّاته.

**الثانية**: إن الشيطان يقوم بتزيين بعضِ الشرور فيغوي بها أناسًا لا تتوقّع غوايتهم، وقد يوجد بين هؤلاء الذين يصبحون آلةً في يد الشيطان أشخاصٌ

(٧٣) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ١٠؛ صحيح مسلم، الفضائل، ١٦٨.

ذوو بنيةٍ معنوية عالية المستوى، إنّ تزيين السوء وتقبيحَ الخير قد يبدو عملًا بسيطًا ولكنه عملٌ كسبيّ وتخريبيّ كبيرٌ بحيث يمكن نسبته إلى الشيطان؛ ولهذا أطلق عليه صاحبُ الشريعة اسمَ «المزيِّن»؛ أي الذي يزيِّن السوءَ.

كما نُمتحن من قبل أهواء النفس والشيطان بإثارة شعور المنافسة في الأرواح، حتى إن الشعور بالغبطة الذي يبدو شعورًا بريئًا لأول وهلةٍ ويسوق الناس للتنافس في خدمة الدعوة قد يصبح ابتلاءً إن انقلبَ بعد ذلك إلى شعورٍ بالمنافسة الصِّرْفة.

فمثلًا إن أصبحت جهود شخصٍ ما وسيلةً لهداية الناس أكثر من شخص آخر، فتمخّض عن هذا أنْ حَسدَ الأخيرُ الأوَّلَ أو غبطه؛ فعليه أن يدرك بأنه في امتحانٍ كبير.

ومع أن الله تعالى يقول: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (سورة الشُّورَى: ٥٢/٤٢)، فإنه يقول في آيةٍ أخرى ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ (سورة القَصَص: ٥٦/٢٨)، إذًا فالله تعالى هو الذي يهدي مَن يشاء، إن المرشدَ يدلُّ على السبيل القويم ويجعل منه جادّةً كبيرةً عند اللزوم، ويضيء هذا السبيلَ بمصابيحَ قويّةٍ وكشّافات ضوئيّة كبيرة لكي يُقبِل الناس على هذا الطريق القويم ويبلّغوا الحقّ ولا ينحرفوا عنه، ولكن -في النهاية- الله هو الذي يهب الإيمان للقلوب، وهو "المعنى الحاصل بالمصدر" من الهداية، أما "المعنى المصدري" فهو ما وُكّل لإرادتنا، ولا يوجد له "وجود خارجيٌّ"، أي لا يمكن أن نقول إنه "موجود" فيما يتعلق بالقدرة والإرادة، بل له "وجود علميٌّ نسبيٌّ".

ومن جملة هذه الامتحانات أن الله يهب لأحدهم فصاحة وقوة بيان بحيث يستطيع هذا الشخص إيضاح حقائق القرآن بأفضل أسلوب

وبأجمل بيان، فيحسده بعضهم، ويتحسر قائلًا "لماذا لم أوهب أنا مثل هذه المهارة؟" فهذا أيضًا امتحانٌ من جملة الامتحانات وعاقبته وخيمة.

صحيح أن الله تعالى اصطفى جميع رسله، ولكنه أيضًا فضّلَ بعض هؤلاء الرسل على بعضهم ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢/٢٥٣)، فهذه الآية تثبت ما ذكرناه، فالله تعالى خصَّ بعض رسله بفضائل معينة ورفعهم إلى درجات لا يبلغها ملائكةٌ وأنبياء آخرون، إلّا أن فضيلة النبوة في معناها العام فضيلة لا تدانيها أيّ فضيلة أخرى، وعدم وجود بعض الفضائل الخاصة عند بعض الأنبياء دون الآخرين لا تجرح نبوَّتهم أبدًا.

من الممكن الإتيان بأمثلةٍ أخرى كثيرة حول سؤال لماذا؟ الذي يحمل معنى الشكوى والحسد: لماذا لا أستطيع أنا تقديم خدمة أكثر للدعوة؟ لماذا لا أستطيع القيام بإعطاء مَعُونَاتٍ مادّيّةٍ أكثر؟ لماذا لا يُصغي إليّ خلق أكثر؟... وغير ذلك الآلاف من الأسئلة من هذا القبيل، والحقيقة أن مثل هذه الأسئلة ليست إلّا ضربات موجهة إلى صدرِ وحدةِ الصفّ، والله تعالى يدعو المؤمنين منذ البداية إلى الابتعاد عن جميع الطرق المؤدية إلى النزاع، والآية الكريمة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٤٦) تتناول هذا الموضوع بالتفصيلِ.

إنّ هذه الآيةُ تخاطِب المؤمنين فتوصيهم قائلةً: لا تدخلوا في أي نزاعٍ مادّي أو معنويّ، بل حاولوا الاتحاد حول النقاط المشتركة التي تسمّونها فيما بينكم "خيط الوصال"، ولا تقعوا في نزاعٍ حتى لو كان حول أمرٍ إيجابي، ولا تدَعوا الحسد ولا التنافس ولا الغبطة أن تقودكم إلى النزاع، وإلّا فشلتم وذهبت قوتكم، إنّ ثمرة العمل الفردي تبقى في مستوى الفرد،

أما الأعمال المنفذة في ظلّ وحدة الجماعة فتُكافأ برحمة الله تعالى العامة، وهكذا يكتسب كلُّ فرد ثوابَ جماعةٍ كاملة.

أجل، إن كلّ عبادة فردية تثمر نتيجةً فردية، ولكن في مقابل ذلك فإن العبادة الجماعية والشراكة في رفع الأيدي إلى السماء بالدعاء، ونبض القلوب معًا، والمعاناة الجماعية وطلب الشيء نفسه جماعيًّا؛ يؤدي إلى تنزّل الرحمة الإلهية الشاملة على الجماعة بأسرها، وهذا ما لا يمكن الوصول إليه فرديًّا، ففي العمل الفردي كلّ ما يستطيعه الفرد هو أن يصبح ربًّا لأسرته، ولكن إن نبضت القلوب جماعةً واستقامت صفوف الجماعة وتساندت اكتسبتْ هذه القوة بُعدًا عظيمًا على مستوى الفرد والمجتمع، ويشعر كلّ فرد ضمن مئات الآلاف من الأفراد الموجودين تحت هذه القبة المتماسكة للجماعة بأنه في حمايتها ورعايتها ويمثل قوة الجماعة المنسوب إليها التي تحميه من القوى الخارجية، فإن انفصل الفرد عن هذه الوحدة وعن هذا الصف وحاول تشكيل ملجإٍ فرديٍّ خاصّ به، زالت تلك القبة الإلهية العريضة عرض القبة السماوية وتحولت إلى مظلّة صغيرةٍ يرفعها الفرد فوق رأسه، ثم تظهر وتتجلّى حقيقة الحديث "**كَمَا تَكُونُوا كَذَلِكَ يُؤَمَّرُ عَلَيْكُمْ**"(٧٤)، أي سرعان ما تتجرّع الأمة نتائج هذه الحقيقة المؤلمة.

فإن كان المجتمع مجتمعًا صالحًا وعلاقته قويّةٌ مع الخالق ﷻ عند ذلك سيحترمنا الآخرون وتتنسمون حينذاك الألطاف اللدنّيّة كما قال سيدنا رسول الله ﷺ لصديقه أبي بكر رضي الله عنه في الغار؛ ومن ثمّ فإن الله سيكون الثالثَ إن كنا اثنين والرابعَ إنْ كنا ثلاثة، والخامسَ إنْ كنا أربعة،

(٧٤) البيهقي: شعب الإيمان، ٩/٤٩٢.

والسادسَ إنْ كنا خمسة، والسابعَ إنْ كنا ستة... إلخ؛ لأن الله تعالى وعد بنصر أوليائه وحمايتهم.

ولكن إن تصرّفنا بشكلٍ منفرد؛ أي حتى لو كنا اثنين ولم نتعاون ولم نتساند كما يجب، فإن الله تعالى سيحرمنا من البركة التي يُنزلها على الشخصية المعنوية للجماعة أي الشخصية المعنوية الحاصلة من ترابط أفراد المجتمع، أي لن يكون الثالث لنا في هذه الحالة ولن يساعدنا، وهذا يعني أننا نترقّى بمعيته، أي إن الفرد الأول والثاني والثالث... إلخ، يجب أن يكونوا أفرادًا أصحاء ويشكّلوا مجتمعًا صحّيًّا لكي ينصر الله تعالى مثل هذا المجتمع ويأخذه تحت حمايته الخاصّة وتحت عنايته، فيتخلص الفرد من عبء وقاية نفسه بمظلّته الخاصة؛ لأنه يدخل ضمن حمايةٍ وأمن سماوي.

أجل، إن التعايش في جماعة مع الناس عاملٌ فعّالٌ ووسيلةٌ كبيرةٌ للحصول على التوفيق الإلهي، فلو قضى إنسانٌ حياتَه منعزلًا في مكانٍ ما، أو على قِمّة جبل ما، وقضى وقته في الصلاة والصيام، وأنفق كلّ ما في يده على المساكين، وأدّى الحجّ وذرف الدموع على الحجر الأسود، وصلى صلواته في مكة أو في الروضة المطهرة التي أجر الصلاة فيهما يحسب أضعافًا مضاعفة؛ فسيظلّ الأجر والثواب الذي سيناله من الله تعالى في المستوى الفردي.

ولكن ما إن يضع يده مع يد الجماعة ويوسّع قلبه على قدْرِ الأمة والإنسانية حتى تتنزّل الرحمة الإلهية بقدر هذه السَّعَةِ، والقرآن الكريم يقول وهو يتحدّث عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (سورة النَّحْلِ: ١٦/١٢٠)، أي إنه نظر إلى إبراهيم عليه السلام وكأنه أمّة كاملة تصويرًا لهمّته العالية.

فكم يكون لطف الله تعالى وعونه كبيرًا لمجتمع لا يحتوي سوى ذوي الهِمَمِ العالية، ومع أن هِمَمَ المؤمنين تكون عاليةً إلا أن التوفيقَ غالبًا ما يُجانب الناس عند امتحان بعضهم ببعض؛ إذ نرى أن حسابات شخصية صغيرة وبسيطة تفسد النظام العام، بل وتُرجَّح على أسباب الوحدة والاتفاق وجمع الكلمة الذي يوازي بحُرْمَتِهِ حُرْمَةَ الكعبةِ المشرفة، وهذا الأمر يعوق ويحول دون تنزّل العناية الإلهية التي يحتمل مجيئها في كلّ آن.

كان القدماء يقولون "بقدر الكد تُكتسب المعالي"، ومع أن هذا ليس بحديثٍ إلّا أنه مثل جوامع الكلم؛ أي إنّ جميع النجاحات -المادية منها والمعنوية- تكون متناسبةً مع المشقات ومع الجهود المبذولة في سبيلها. أجل، فمن يدري مقدار الألم والمعاناة التي تتحملها البَذرة تحت التربة حتى إبراز رأسها كنبتةٍ فوق التراب، إذ تنشق وتتحمل آلام اختراق التربة وتستعدّ لاستقبال أشعّة الشمس وتتهيّأ لها، فكلّ هذه الجهود والآلام هي آلام الولادة والنضال في سبيل الوجود والانبعاث، لذا فهي مهمّة جدًّا.

كلّما انهمرت علينا نعم الله تعالى وأفضاله زادَ ثِقَلُ مهمّتنا واشتدّت الامتحانات، وعلينا أن ندرك تمامًا أن هذه المرتبة العالية التي خصّنا بها الله تعالى بكرمه لا تعود لفضيلةٍ أو قابليّةٍ شخصية فينا أبدًا، وإنما يجب أن ننظر إليها كَلُطْفٍ إلهيّ ونقيّمها على ذلك، إن وصور الجمال والخير تمرّ بنا دائمًا، وعندما تمرّ تقوم بطَرْقِ أبوابنا؛ لأننا في حاجةٍ إليها أكثر من الآخرين ولا نستطيع أن نكون مظهرًا لهذا الجمال بأشخاصنا، وكلّ هذه الجماليات تنعكس علينا كانعكاس أشعّة الشمس على قطرات المياه.

وعلينا ألا ننسى أن هذا اللطف والكرم الإلهي الذي ينهمر من فوق رؤوسنا وينفذ إلى أعماق كياننا إنما يأتي باسم الجماعة، إذ لا يستطيع أحد أن يدّعي أنه صاحبُ الفضل في هذا.

**الثالثة**: حبُّ المال والمنفعة المادية من صور الامتحان في حياة الجماعة، والنزاعاتُ والخصومات الموجودة بين السياسيين تنبع من هذه الناحية ومن هذه الأفكار السلبية والمخرّبة التي تستند إلى النزاع حول المنافع المادية؛ ذلك لأن هناك أعينًا كثيرة ترنو إلى مناصب معينة، وهناك أصحاب أهواء وشهوات لا يعرفون الشبع يلهثون وراء منافعهم ومصالحهم الشخصية؛ الأمر الذي يؤدّي إلى أن تنقلبَ الوحدة إلى اختلاف، والاتحاد والتعاون إلى تفرقة وخصام، بينما يجب أن تؤدَّى جميع الأعمال وجميع التضحيات لوجه الله تعالى دون انتظار جزاءٍ أو شكورٍ من أحد، ولو تم هذا لاجتاز الكثيرون امتحان المنافع المادّية المؤدّية إلى الشقاق والخصام.

لقد أجبنا بهذا الجواب لأن السؤال كان يدور حول الامتحان المَنُوطِ بالوحدة ورصّ الصفوف؛ لأنه لا يمكن تحديد صور وأشكال الامتحانات التي يتعرّض لها الإنسان، ولا يمكن تعدادها هنا واحدة واحدة.

ويسألُ السائلُ عما إذا تعرّض الصحابة الكرام إلى امتحان بعضهم ببعض، لذا فلنقِفْ هنا قليلًا ونقول:

ما كان من الممكن إعفاءُ الصحابة من مثل هذا الامتحان؛ ذلك لأنهم نالوا أعلى المراتب في الحياة المعنوية فكان لزامًا عليهم أن يتعرّضوا إلى أصعب امتحان، ولا سيما أن الاجتهادات العديدة التي ظهرت في العهود التالية حول كيفية إدارة الدولة قد صعّبت من تلك الامتحانات وجعلتها

أشدّ وطأة، ولكن مع ثقل الامتحان وقسوته لم ينحرف أيُّ صحابيّ عن التماس طريق الحق، وعندما تبين لبعضهم أنهم لم يكونوا على الحقّ أغمدوا سيوفهم في ظرفٍ لم يكن من السهل أبدًا إغمادها.

لقد أدركت أمُّنا عائشة رضي الله عنها خطأها عندما وقفت أمام الإمام علي رضي الله عنه، وتذكّرت أن رسول الله ﷺ قد أشار بشكلٍ ضمنيّ إلى هذا الأمر قبل انتقاله، فركبت دابّتها ورجعت وهي نادمة أشدّ الندم(٧٥).

كان الزبير بن العوام رضي الله عنه رجلًا شجاعًا وشهمًا، فلقد أَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي سِنِينَ، وَهَاجَرَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ عَمُّهُ يُعَلِّقُهُ فِي حَصِيرٍ، وَيُدَخِّنُ عَلَيهِ بِالنَّارِ، وَيَقُولُ: ارْجِعْ إِلَى الْكُفْرِ، فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ: لَا أَكْفُرُ أَبَدًا(٧٦)، كان الرسول ﷺ يقول: "**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيرُ بْنُ العَوَّامِ**"(٧٧)، ملفتًا الأنظارَ إلى شجاعتِه وشهامته.

ولما دارت الأيام ووجد الزبيرُ نفسه يوم "الجمل" أمام علي رضي الله عنه وجهًا لوجه حتى اختلفت أعناق دوابهما؛ خَلَا عَلِيٌّ بِالزُّبَيرِ فَقَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ كَيفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَأَنْتَ لَاوٍ يَدِي فِي سَقِيفَةِ بَنِي فُلَانٍ: "لَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ، ثُمَّ لَيُنْصَرَنَّ عَلَيكَ"؟ قَالَ: قَدْ سَمِعْتُ، لَا جَرَمَ، لَا أُقَاتِلُكَ"(٧٨)، لقد نزلَتْ كلماتُ عليّ رضي الله عنه -وهو ينقل عن النبيّ ﷺ قوله: "وأنت ظالمٌ له"- على مسامع الزبير رضي الله عنه كالصاعقة، فلقد نسي الزبيرُ رضي الله عنه ذلك الموقف بمرور الزمن، إلا أن عليًّا كرّم الله وجهه لما ذكّره تذكّر وأذعن للحقّ وأغمدَ سيفه في أحلكِ الظروف وأشدّ الأوقات.

(٧٥) انظر: صحيح ابن حبان، ١٥/١٢٦.

(٧٦) الطبراني: المعجم الكبير، ١/١٢٢؛ الحاكم: المستدرك، ٣/٤٠٦.

(٧٧) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٤١.

(٧٨) ابن أبي شيبة، المصنف ٧/٥٤٥.

واحتضنَ عليًّا وطلب منه العفو والصفح، ثم ركب جواده وترك ميدان القتال، وسار ليلتين من البصرة فمرّ على ماءٍ لبني "مجاشع"، فعرفه رجلٌ من تميم، يقال له "ابن جرموز" فقتله، وجاء بسيفه إلى عليّ، فقال: هذا سيف الزبير، قد قتلته، فقال علي: بَشِّرْ قَاتِلَ الزُّبَيرِ بِالنَّارِ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنَّ الزُّبَيرَ حَوَارِيِّي**"(٧٩)، لم يكن عليٌّ رضي الله عنه يتكلّم من عنده، بل ينقل ما سبق وأن سمعه من الرسول ﷺ، لقد أخذَ عليّ رضي الله عنه سيفَ الزبير رضي الله عنه ونظر إليه قائلًا: سيفه لعمري سيفٌ والله لطالما جُلِيَت به الغمرات عن وجه رسول الله ﷺ، ثمّ انفصح هو وبنوه يبكون على الزبير رضي الله عنه، ولما قيل له: يا أبا الحسن هذه فاطمة تبكي على الزبير؟ قال: فعلى مَن بعد الزبير إذا لم تبكِ عليه(٨٠).

كما ترون فقد امتُحن الصحابة ببعضهم أيضًا، ولكنهم عندما اقتتلوا فيما بينهم اقتتلوا في سبيل الحق باجتهادٍ منهم، وعندما تبين لهم أنهم ليسوا على حقٍ توقّفوا عن القتال وجنحوا للسلم، لم ينتقد أحدٌ منهم القدرَ، ولو قاموا بمثل هذا النقدِ لتضاعفت المصيبة، وكلّما تعرضوا للامتحان من قبل الله تعالى استغلوا فطنتَهم العظيمة التي وهبها الله لهم وحاولوا الوصول إلى الحقّ في ضوء الظلال النورانية القرآنية.

ومن ذلك ما كان بينَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما من مُحَاوَرَةٍ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ**" قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَصَّ

(٧٩) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٧/١٣٠.

(٨٠) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ١٨/٤١٢-٤٢٣.

عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الخَبَرَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ"**(٨١).

ولكن ما نريد هنا التأكيد عليه هو تجريم الصحابيَّين لأنفسهما وإعلائهما كلمة الحقّ على ما سواها، فإذا لزم الأمر أن يجتمعا حتى في النار لدخلوها وكأنها الجنة.

لم يقم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ببيعة أبي بكر رضي الله عنه مدة ستة أشهر وكان مَن حوله مِن محبيه يريدون منه المطالبة بالخلافة، وبعد انقضاء ستة أشهر وبُعيد وفاة فاطمة الزهراء رضي الله عنها جاء إلى المسجد النبوي وذكر أمام الحاضرين في المسجد بأن امتناعه عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه مدة ستة أشهر لم يكن مبعثه معارضته له، وأنه جاء لمبايعته رضي الله عنه(٨٢).

يجب أن يكون الإنسان وقافًا عند الحق، وكان الصحابة يطلقون صفة "الوقاف عند الحق" على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم يكن يُقدّس أو ينحازُ لرأيه الشخصيّ أبدًا، لأنه ما إن يذكر له أحدٌ آيةً أو حديثًا لتصحيح رأيه حتى يرجع عنه حالًا ويلتزم بالحق.

فعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: "أَلَا لَا تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ سَاقَ أَكْثَرَ مِنْ شَيءٍ سَاقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَو سِيقَ إِلَيهِ إِلَّا جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلِكَ فِي بَيتِ الْمَالِ" ثُمَّ نَزَلَ، فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قَرِيبٍ، فقالت: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

(٨١) صحيح البخاري، تفسير القرآن، ١٤٢.

(٨٢) صحيح البخاري، المغازي، ٤٠.

أَكِتَابُ اللهِ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَو قَولُكَ؟ قَالَ: "بَلْ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، فَمَا ذَاكَ؟" قَالَتْ: نَهيتَ النَّاسَ آنِفًا أَنْ يُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (سورة النِّساء: ٤/٢٠)، استمع عمر ﷺ بكلّ أدب إليها، والحقيقة أن نصيحته لم تكن خطأً إلّا أن حساسيته وأدبه دفعه إلى قول: "كُلُّ أَحَدٍ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ لِلنَّاسِ: "إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ أَلَا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَا لَهُ"(٨٣).

حاشا لله فما كان عمر ﷺ يجهل دينَه، ولكن كان مفهومُه للحقّ وارتباطُه به عميقًا إلى درجة أنه لم يشأ أمام كلام تلك المرأة سلوك طريق التأويل أو الاعتراض، بل قَبِلَ الحقَّ بكلّ بساطة.

لم ولن تُنجَز الأعمالُ الكبيرة والمهامُّ الثقيلة إلا من قِبل أناسٍ على هذا المستوى، وكلّما كنّا قريبين من روح الصحابة اقتربنا أكثر من توفيق الله تعالى.

وفقًا لقَانون السَّبب والنتيجة؛ فإن ثقلًا معينًا في عهدٍ ما يحتاج إلى عضلات قويّة لرفعه، ويحتاج إلى نفس قوة العضلات لرفعه في عهد آخر أيضًا، فالأذرع الضعيفة تعجز عن رفع تلك الأثقال.

فكما نحتاج لِنَزِنَ كيلو غرامًا واحدًا إلى وضع كيلو غرام مثله في الكفة الأخرى من الميزان؛ فكذلك هذه القوانين ثابتة لا تتغير، فكما تحققت الحقائق الكبرى والغايات المثالية على يد أناس على نمط الصحابة ﷺ، فهي تحتاج اليوم كذلك إلى مثل هذا النمط لكي تظهر اليوم وتنتصر، أما انتظار انتصار هذه الحقائق وظهورها بوساطة أشخاص

(٨٣) البيهقي: السنن الكبرى، ٧/٣٨٠.

ضعفـاء لا حول لهم ولا قوة فهـو محال التحقيقِ لأنه ضربٌ من ضروب الخيال، إذًا علينا أن نكون كالصحابة في التزام الحقّ وفي الشعور بالوحدة ولمّ الشـمل لكي يرى الأعداء أن أبواب الفتنة موصدةٌ أمامهم، ولا بدّ أن يقضـي عليهـم اليأس بينما نجيشُ نحنُ بالأمل، ولا يتـمّ هذا إلّا إذا فرَرْنا من عبادة النفس إلى الالتزام بالحق، فهذا هو الطريق المؤدّي إلى الوحدة وإلى لمّ الشمل.

## إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة

**سؤال: كيف يمكن تقييم الدنيا في ظل الظروف الراهنة؟ نحن لا نستطيع إقامة توازن بين الدنيا والآخرة؛ فكيف نجح الصحابة في ذلك في عهد النبوة وما بعده؟**

**الجواب:** الدنيا منزلٌ من منازل عديدة نمرّ بها ونجتازها، وهناك آيات قرآنية عديدة وأحاديث نبوية كثيرة تعلمنا هذه الحقيقة وتنذرنا بها، فالإنسان ينتقل من عالم الأرواح إلى رحم الأم ومنه إلى الحياة الدنيا، وبعد أن يجتاز فيها مراحل الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة ينتهي به الأمر إلى القبر فعالم البرزخ والحشر، ثم إلى الحياة الخالدة الأبدية؛ أي إنه لا يبقى في هذه الرحلة الطويلة سوى أيامٍ معدودات في الحياة الدنيا.

أجل، فالدنيا ليست إلا منزلًا واحدًا من منازل عديدة للإنسان، ويصور الرسول ﷺ لنا ذلك فيقول: "**مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**"[٨٤]، فالإنسان مسافر سفرًا طويلًا، ولكي يرتاح برهةً في أثناء هذا السفر يقضي وقتًا قصيرًا في ظل شجرة، وإلا فالدنيا ليست مقامه أو منزله الدائم، بل هي عبارةٌ عن محطّةٍ من محطّات الاستراحة القصيرة لا غير.

---

(٨٤) سنن الترمذي، الزهد، ٤٤؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣.

وطنُنـا الأصلـي هـو دارُ الأرواح، فقد لبسـنا حلّة الجسـد من هناك، وجئنا إلى الدنيا حتى نشكِّل حياتنا الأبدية ثم نعود إلى وطننا الأصلي مرةً أخرى، لذا يجب تقييم الدنيا من هذه الزاوية.

والمؤمن إنسانٌ توازُنٍ، لذا يجب أن يقي نفسه من الإفراط ومن ضرباته المهلكـة كمـا هو الحال في كلّ أمر، وأحسـب أن تحقيق هذا المعيار إنما يتأتّـى بإعطـاء أهمّيّة للدنيا بنسـبة البقاء فيها وإعطاء أهمية للآخرة بنسـبة البقـاء فيها أيضًا، والقـرآن الكريم يعلّمنا فيقول: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ (سورة القَصَصِ: ٧٧/٢٨).

مـاذا آتانـا الله؟ لقـد آتانا العقـل والقلب والـروح والجسـد والصحّة والشباب ونِعَمًا أخرى لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وكلّها رأسمال، وبهذا الرأسمال نسـتطيع شـراء الآخـرة، وقـد ورد هـذا الموضوع فـي آية أخـرى هكذا ﴿**إِنَّ اللهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُـمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ (سـورة التَّوْبةِ: ١١١/٩).

الإنسـان هنا هو الطرف الذي يُعطـي المتاع الزائل الفاني، والله تعالى هـو الـذي يعطـي ويهب ما يبقـى ولا يزول، ومن أجل هـذا العقد يدعونا القـرآن أن نبتغـي الدار الآخرة، لذا كان من الواجـب علينا أن نضـع الدار الآخـرة نصبَ أعيننا وأن تكـون النقطةَ المحوريّة لكل حركة وكلِّ تصرُّفٍ مـن تصرُّفاتنـا؛ لأننا سـنبقى هناك بقاءً خالـدًا، والدنيا هي الكُـوَّةُ الوحيدةُ المؤدّيةُ إليها والطريق الوحيد للفوز بها.

والآيـة توصينـا بألا ننسـى نصيبنا من الدنيا، ولكن بأسـلوبٍ يشـعرنا بأن الدار الآخرة هي الأسـاس وهي الغاية التي يجب أن نختارها ونسـعى إليها؛ ذلك لأن الآخرة هي الدار التي يتطور فيها الإنسـان ويسـمو بجميع

جوانبه، فإن شبهنا الحياة الدنيا ببَذرة، فإن الآخرة هي الشجرة الباسقة العالية نحو السماء والمتولّدة من هذه البَذرة.

أجل، إن جميع الحواس والمشاعر ستنمو وترتقي بشكلٍ غير محدود في الجنة، فقابليّة الرؤية والتذوُّق والسمع... إلخ ستزداد أضعافًا مضاعفةً بينما مثل هذه القابليات كانت تبلغ في الدنيا واحدًا أو اثنين من ألف تقريبًا، ثم إن المؤمنين سيشاهدون من الجنة جمالَ الله تعالى أيضًا، ورؤية هذا الجمال لحظةً واحِدةً تُعادِلُ لذَّةَ آلاف السنوات في الجنة، إذًا فعلى الإنسان أن يضع كلّ هذا نصبَ عينيه عندما يقوم بعملية اختيار بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة؛ فهل هناكَ شيءٌ يَفْضُلُ السعادةَ برؤية الله تعالى؟ علمًا بأن الحصول على رضوان الله تعالى نعمةٌ لا يُعادلها أيّ منصبٍ أو جاه، بل إن الجنة بكلّ نعيمها وبكلّ زينتها تبقى باهتة تجاهها.

والقرآن الكريم يُرشدنا إلى أن رؤية الله تعالى هي أعظم نعمة وإحسان يتفضل الله تعالى به على المؤمنين في الآخرة، فيقول: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٩/٧٢)، وجاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيكَ وَالخَيرُ فِي يَدَيكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**"(٨٥).

فإذا ما وضعنا هذا القسطاس للحياة ما أهملناها أبدًا؛ بل سنحبُّها لا من أجلها، بل لكونها جسرًا وطريقًا مؤدّيًا إلى الآخرة، ولا يوجد لمثل

(٨٥) صحيح البخاري، التوحيد، ٣٨؛ صحيح مسلم، الجنة، ٩.

هـذه العلاقـة أو الرابطة أيُّ محـذورٍ، وكما يقال: "الدنيـا مزرعة الآخرة"، ونسـتطيع أن نصـل بالأمـر إلى أبعد من ذلـك فنقول إننا لا نسـتطيع أن نكون أهلًا للآخرة إلا بوسـاطة الدنيا؛ ذلك لأن جميـع حواسنا ومشاعرنا ولطائفنا وقابلياتنا تنمو في الدنيا وتتوسّـع، وهكذا نستطيـع أن نكون أهلًا لرؤية الله تعالى.

إن الإنسـان لا يسـتطيع رؤيـة الله تعالى في الدنيا لأنـه لا يملك هذه المؤهّلات ولم تتهيأ له ولم يصل بعد إلى هذا المسـتوى من الاسـتعداد، والمسألة لا تتعلق بأبعاد الزمان والمكان أو بغيرها من الأبعاد، فالله تعالى أقـرب إلينا مـن حبل الوريد، يحنو علينا بإحسـاناته، ويقضي في شـؤوننا بإرادتـه، ويتصـرّف بقُدْرَتِـهِ اللانهائيّـة، وإذا أردنـا التعبيرَ عن هـذا بتعبيرٍ صوفيٍّ نقول: "لا شيءَ أظهر من الله تعالى، ولكنه خفيٌّ عن العميان"، فإن كنّا لا نستطيـع رؤيته فهذا يرجـع إلى قصورنا، وإزالةُ هذا القصور في يَدِهِ تعالى، وسـيزيله في الدار الآخرة فيستطيـع المؤمن رؤيةَ جمال الله ويصل إلى أمله وبُغيته الأصلية.

إذًا فالدنيا مزرعةٌ تُثمر لنا مثلَ هذه النتائج، وعندما ينتقل الإنسان من الدنيـا إلـى العُقبى تزول الحجب النورانيّة واحدًا تلوَ آخر؛ فيرى الإنسـان عند ذلك ربَّه.

إنّ الدنيا عبارةٌ عن تجليات أسماء الله تعالى، لذا علينا ألا نستهين بأيِّ شأنٍ من شؤون الدنيا؛ لأن حقائق الأشياء ما هي إلا تجليات لأسماء الحق تعالى، وكما يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: "إننا نحنُ وإرادتنا وكلَّ مـا يحدث حولنا نُشْـبِهُ رايـةً منصوبةً على عمودٍ مرتفـعٍ جدًّا، وعلى هذه الرايـة كتابـات ترفرف بها، والذي يُحَرِّكها ويرفرفها هو الله تعالى سـلطان

الأزل والأبد"، لذا فإننا إذا ما نظرنا إلى الحوادث والأشياء على أنها بستان -تحت إرادته وتصرُّفِهِ- تتجلى فيه أسماء الله تعالى وصفاته؛ نُشاهِدُ جمالَه على كل زهرةٍ وعلى كل قطرة ماءٍ عليها وعلى كلّ حبّة ندًى فوقها، ويُعبِّر جلال الدين الرومي عن هذا الأمر بتعبيرٍ ربما يصعُبُ فهمه على كثيرين فيقول:

"إن الخيالات التي هي شبّاك الأولياء إنما هي مرآةٌ عاكسة تعكس الوجوه النيّرة في حديقة الله"(٨٦).

عرض الله تعالى أمام أنظارنا بتجلّيات أحديّته بعضَ الجماليات في ذاته، ثم أوصلنا بلُطْفِهِ وكَرَمِهِ وأسرار أحديّته إلى القدرة على استنباط بعض الأمور وفقًا لدرجتنا المعنوية، فلما تجلّت هذه الوجوه النورانية في بُستان الأَحَدِيَّةِ للحقّ تباركَ وتعالى استطعنا أن نراها بأبصارنا المحدودة في هذا العالم، وأن نشهد تجلّي ربّنا ﷻ فيها، فَفُتن بها من فُتن، ووقع في حُبِّها من وقع، أما من جُنّبها وهام على وجهه في الصحراء فهو كما قال يونس أمره: يظل يطلبها بلسان الحوت في البحار والغزال في الصحراء، أما الآيات الدالة عليه ﷻ كعصا موسى عليه السلام فتنعكس في بستانه ﷻ على مرآة روحنا.

لا أنوي هنا شرح هذه المسألة الدقيقة فالذي نريد أن نقوله في هذا الموضوع الذي شرعنا فيه من طريقٍ غير مباشر هو: أن الدنيا بستان الله تعالى، وأنّ أنوار ذوي الوجوه النيرة في هذا البستان تنعكس على مرايا قلوبنا وتتجلّى فيها، فإذا كان الحال هكذا فإنّ ما نقوم به من أمورٍ دنيوية هو عبارة عن موجات تجلّ آتية منه على أطوالٍ مختلفة، ونحن هنا لا نتناول

(٨٦) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **الشعاعات**، الشعاع الثاني، ص ١٠.

بالطبع الموضوع بنظرة أصحاب وحدة الوجود أو أُولي وحدة الموجود، لا نتناوله هكذا ولكننا نؤيد قول الإمام أحمد السرهندي الملقب بالإمام الرباني ﷺ: "إن حقائق الأشياء عبارةٌ عن تجليات الأسماء الإلهية". أجل، نحن لا نستطيع ترك الدنيا لأننا لن ننال الآخرة إلا بوساطة الدنيا، صحيح أنها عبارة عن ركام من الأراجيف والأوساخ، ولكن كم من جواهر نفيسة للحقائق كامنةٌ في هذه الأراجيف، هناك قصة في "المثنوي" عن محمود الغزنوي، وهي وأشباهها قصصٌ رمزية، والحقّ أن الحكيم الهندي "بيدبا" قبلَ "لافونتين" قد قام بسرد القصص والحكم على لسان الحيوانات، وقام بعده كثيرٌ من علماء المسلمين باتباع الأسلوب نفسه في كتبهم، ومن بينهم مولانا جلال الدين الرومي، إذ أورد قصةً على لسان محمود الغزنوي وكلبه الرابض أمام بابه، فقال:

"كان كلبه يذهب كل يوم إلى مزبلة أمام القصر ويظلّ ينبش ويبحث فيها فلا يجد شيئًا يأكله، ومع ذلك يذهب في اليوم التالي إليها ويظل يبحث فيها عمّا يأكله حتى المساء، كان هذا ديدنه كلّ يوم، فقال له محمود الغزنوي ذات يوم: منذ أيام وأنت تنبش في تلك المزبلة فلا تجد شيئًا ومع ذلك لا تكفّ عن الذهاب إليها، ألَمْ تسأم وتملّ من هذا البحث غير المجدي؟ فقال له الكلب: لقد وجدت في أحد الأيام في هذه المزبلة عظمة، ومن أجلها أذهب كلَّ يوم لعلي أجد عظمة أخرى".

الدنيا في نظر أهل الحقيقة ركامٌ من الأراجيف مثل ركام تلك المزبلة، والله تعالى خلطَ في هذه الدنيا الخير مع الشر والجميل مع القبيح، ولكي لا يُنسب قبحُ الأشياء إليه تعالى مباشرةً؛ وضع أستار الأسباب، فبقي القبح الظاهري للأشياء وراء هذه الأستار، ولكن الله تعالى هو خالق

كلّ هذه الأشياء التي تتجلى فيها ما لا نعلمه أو نحصيه من أسمائه تعالى، الأسماء الإلهية لا حصر لها وهو وحده يعلم عددها، فهناك أسماء لا يعلمها إلا هو، ولم يُطلع أيَّ نبيّ أو ملكٍ مقرّبٍ عليها، وهذا معنى دعاء النبيّ ﷺ: "**أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**"(٨٧)، ومن ثمّ علينا أن نقوم نحن بالنبش في هذه الدنيا وأن نبحث بكلّ شوقٍ في الأماكن التي يظنها الآخرون مزبلة من المزابل؛ لعلّنا نبلغ حقيقةً أخرى زيادة على الحقائق التي عثرنا عليها.

هناك وجه آخر للدنيا ننفر منه ونهرب؛ وهو وجهٌ يتعلّق بها؛ لأنها فانية وزائلة، لا تعطيك قطعةً واحدةً من الحلوى إلا مقابل صفعات عديدة؛ فهذا الوجه هو وجه اللهو والغرور، وهو الوجه الذي يقبل عليه أهل الدنيا ويجلّونه، بينما هو وجه قبيح بالنسبة لنا، وكلما زاد البغض منه كان أفضل.

إذًا نستطيع إقامة التوازن بين الدنيا وبين الآخرة من هذه الزاوية، الدنيا زائلة، والآخرة باقية، ولم يترك الرسول ﷺ الدنيا ولم ينعزل عن الناس، ولكنه كان على الدوام مع الحق تعالى، كيف لا وهو القائل: "**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**"(٨٨).

علينا أيضًا أن نتصرّف على هذا النحو؛ فنخرج إلى الأسواق والشوارع التي تجري فيها الأراجيف أنهارًا، ونستمرّ طلّابًا وأساتذة في الذهاب إلى المدارس والجامعات، وربّما في سبيل هذا نتحمّل كثيرًا من الأذى

(٨٧) مسند الإمام أحمد، ٢٤٧/٦.
(٨٨) سنن ابن ماجه، الفتن، ٢٣.

المعنوي والمادي، وربما يسدّ هذا في وجوهنا السبل المؤدّية إلى الولاية والقرب منه تعالى بشكلٍ إرادي أو غير إرادي، ولكن علينا أن نضحي حتى ببعض مشاعر الفيوضات الربانية، فكما رجع رسول الله ﷺ من الجنة -أثناء المعراج- ولم يتأثّر بزينتها وحسنها فعلينا أن نتخلق بخلق الرسول ﷺ ونحاول تمثيل الحقيقة الكبرى التي جاء بها ﷺ، والذين يقفون في الدنيا كمَن يقف فوق جمرات من النار، مثل هؤلاء لا يمكن أن يتطلّعوا أبدًا إلى الوجه الفاني للدنيا، ولا يمكن أن يشغلوا قلوبهم بها، وهم وإن كانوا دائمًا بين المخلوقات فإنهم دائمًا مع خالق المخلوقات تعالى.

لم يفكّر الرسول ﷺ في الدنيا حتى عندما أقبلت بِبُلَهْنِيَتِهَا عليه، فلم يُفكِّر في الاستفادة منها رغم إمكانية ذلك، لقد رحل عن الدنيا مثلما جاء إليها، جاءَ إليها فلفُّوه بقطعة قماش، ورحل عنها فلفّوه بقطعةٍ مثلها.

لقد حاول الرسول ﷺ طوالَ حياته السنيّة تأسيسَ حضارةٍ تلهج بذكرها الحضارات وإقامة عالم متوازن هنا في الدنيا وهناك، ولم يتنازل طوال حياته قطّ عن دعوته هذه.

لقد دانَ بالتسليمِ المُطْلَقِ لله تعالى طوالَ حياته، فعاش في اطمئنانٍ يحاول دائمًا كسب رضا الله تعالى وإنقاذ الإنسانية، فلم يتكدَّر صفوُه بأهواء الدنيا وبملذاتها، أقام نظام الإسلام وطبّقه في بيته، فلما طالبته بعض نسائه بأخذ حظهن من الدنيا وزينتها اعتزلهن حينًا، حتى إنه ﷺ خيَّرَهُنَّ -بأمر من الله تعالى- بين البقاء معه والاكتفاء بما عنده أو تسريحهن بإحسان، حينذاك فضّلت زوجات الرسول ﷺ البقاء معه وتحمّلَ شظفِ العيش معه على نِعَمِ الدنيا وملذّاتها، في هذه الأثناء دخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ

وهو في غرفته معتزلًا نساءه، فَرَأَى أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَى، فَقَالَ ﷺ: "**مَا يُبْكِيكَ؟**" فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ! فَقَالَ: "**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**"(٨٩).

لم يترك رسول الله ﷺ الدنيا، بل قام برؤية وبإظهار جميع الحقائق الإلهية المتجلية في الكون وتبليغها وتوصيلها إلى العالم أجمع بجيوشه التي انطلقت إلى أرجاء الأرض تحمل معها الإسلام وتنصب رايتَه في كلّ مكان، وأرى هنا من الضروري تسجيل نتيجة توصَّل إليها بعض علماء الاجتماع المعاصرين، إذ قالوا ما يأتي:

كانت البشرية قد سجّلت حتى عهد رسول الله ﷺ تقدُّمًا مقداره ٢٥٪، ولكنها استطاعت بفضله وفي عهده -أي في مدّةٍ قصيرةٍ- زيادةَ هذه النسبة إلى ٥٠٪، ولم تستطع البشرية منذ عهده وحتى الآن إلا تسجيل نسبة زيادة بمقدار ٢٥٪ فقط، ومن المتوقع أن تصل إلى النسبة الباقية في المستقبل، وهكذا قطع ﷺ في ربع قرنٍ مسافةً لم تستطع الإنسانية أن تبلغها لعدة عصور، وثبت أنه هو القدوة والأسوة لجميع الأجيال حتى قيام الساعة.

لم ينعزل ولم يترك الدنيا -نكرر هذا مرةً أخرى- بل عرفَ كيف يوجّه أُمَّتَهُ التوجيهَ الصحيح ولأي شيء يجب إعطاء الأهمية وبأي نسبة.

---

(٨٩) **صحيح البخاري**، تفسير القرآن، ٤٠٥.

## تخليصُ الإرادة من قبضةِ مشاعرِ الشرِّ وقتَ الفراغ

**سؤال: في أوقات فراغنا يُلقي الشيطان في قلوبنا كثيرًا من الشبهات والشكوك وتصبح إرادتُنا أُلعوبةً في يد مشاعرنا حتى نحسّ بأن صبرنا عن المعاصي قد بدأ ينفد، فبماذا توصوننا؟**

**الجواب:** بدايةً يجب أن نستعيذ بالله من دسائس الشيطان وفتنه وتزيينه الشرور وأن نضع جباهَنا على الأرض ساجدين؛ لنكسرَ غرورنا؛ لأنّ "**أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**"(٩٠)، وأن ندخل في حرز ربنا سبحانه مبتهلين إليه قائلين: "**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**"(٩١).

إن القول بأن الشيطان يتسلّط علينا في أوقات فراغنا هو تعبيرٌ عن الحقيقة، فالشيطان يتسلّط أكثر ما يتسلّط على الأشخاص العاطلين الذين لا يقومون بأي نشاطٍ دينيٍّ ولا يحملون همّ الدعوة إلى الله؛ لذا علينا أن نبدأ من نقطة البداية هذه ونتخلّص من الخمول والفراغ، ونبحث عن طرق النشاط.

وما دام الشيطان يستفيد في الأكثر من فراغنا فيوسوس في صدورنا ويزيّن الشرور في أعيننا ويحضّنا على اقتراف الآثام، إذًا فعلينا أن نشغل أنفسنا دائمًا بمشاغل الخير، ونحاول سدّ الفراغات التي ينفذ منها

---

(٩٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٥٦.

(٩١) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢؛ سنن الترمذي، الدعوات، ١٣١.

إلـى أنفسـنا، وأن نتشـبّع بالفكر والعمـل حتى لا ندع له مجـالًا ينفذ منه إلى أرواحنا، إن الشـيطان لن يجد طريقًا يوسـوس من خلالها في صدور المرتبطين بالله تعالى والمجددين معه هذه الرابطة من خلال التأمّلِ الدائمِ للآفـاقِ والأنفـسِ، كما لا قِبَل له بأن يتلاعب مـع الذين يذكرون الموت على الدوام ويتأثّرون به ولا يستطيـع أن يهزمهم.

ولن يستطيـع الشيطان فرضَ نفسِهِ وَوَسَاوِسِهِ على رجل الدعوة الذي ينافح ليلَ نهار لإعلاء راية الإسـلام في كلّ أنحاء الأرض، ولن تسـتطيـع يد الشيطان الخبيثة أن تمتدَّ إلى إنسانٍ تشبّعت جميـع أحاسيسه ومشاعره بالإيمان اليقيني، وعَمَرَ قلبه بالفيوضات الإلهية.

والخلاصـة أننـا إن كنـا على ارتبـاطٍ وثيـقٍ بربنا فلن يدعَنا للشـيطان الذي هو عدوّنا المشـترك. فهل من الممكن أن نكون أوفياء لدينه فننصره ولا يكـون هـو ﷻ -حاشـاه- وفيًّا لنا؟ بل هو أوفى الأوفياء، فلا شـكّ أنه لن يكلنا إلى أهوائنا، ولن يتركنا للانحلال والتفسّـخ؛ فهو يقول في كتابه العزيز: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٤٠)، فهل من الممكن أن يسـلِّط ربُّنا سـبحانه الشـيطان علينا ونحن نعمل على نصرة دينه؟ أبدًا، بل على العكس تمامًا، ففي مثل هذه الأوضاع سيجعل لساننا رطبًا بذكره، ويردّنا إلى أنفسنا لنتذكر ونبتعد عن الهاوية التي أعدّها الشيطان لنا، مثلما أبعد بعض صحابة رسـول الله ﷺ الكرام، فقد جاءت أوقاتٌ تكدّرت فيها أبصارهم ودارت فيها رؤوسـهم لكونهم بشرًا، ولكن الربّ سبحانه أراهم برهانَه وصرف أبصارهم إلى المعالي الآخرة مجدّدًا.

ولو ألقى كلّ مَن يعمل في الدعوة نظرةً متأمّلةً على حياته لرأى كيف أنه أشـرفَ أكثر من مرّةٍ على شـفا الجُرُفِ الهَارِ باستعماله إرادتَه استعمالًا

سيّئًا أو نتيجة خطإٍ ارتكبه دون قصد، وكيف مدّت العناية الإلهية يدَها إليه وأنقذته، وبنسبة إخلاصه وصدقه رأى عونَ الله ولُطْفَهُ، وشاهد مكتوبًا على ناصية إرادته سرّ الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة مُحَمَّدٍ: ٧/٤٧).

إنّ إرادتنا جزئيّةٌ وضيّقةٌ للغاية، وعلى الرغم من هذا فقد جعل الله تعالى هذه الإرادة الجزئية شرطًا عاديًا ليقلب بها كلّ ألاعيب الشيطان، إنّ قيامنا بقَطع الطريق أمام ما يلقيه الشيطانُ وما تلقيه النفسُ الأمّارة بالسوء فينا منذ البداية يعني سيطرَتَنا على أرض المعركة إلى حدٍّ ما، وقد تأتي أوقاتٌ تسيطر فيها خيالاتنا علينا حتى لا نستطيع التغلّب عليها، وقد نستطيع في أوقات أخرى التخلّص منها والابتعاد عنها ومحاكمتها وإن رضخنا لها برهةً، أحسب أنكم ستؤيّدون ما أقول؛ فقد تأتي أوقاتٌ وأوضاع لا تكفي لمواجهتها إرادتُنا وحيوية قلوبنا، عند ذلك نستمدّ العون من أشخاص تسطعُ وجوهُهم بالحقيقة، وتتوافق إرادتهم مع إرادة ربهم سبحانه؛ بحيث إذا ما جالسناهم شعرنا وكأننا نجلس بين يدي نبيٍّ من الأنبياء، كلامهم وحديثهم إكسيرُ الحياة يُذيب على الفور الأفكارَ والمشاعر السيّئة التي تجمّدت داخلَنا، وأحيانًا نكون نحن أيضًا مظهرًا لمثل هذا الحال والجوّ الروحاني، فيلجأ إلينا الآخرون يلوذون بمناخنا ويعتمدون علينا في مواصلة وجودهم.

فالله تعالى خلق الإنسان بفطرةٍ تميل إلى التعايش مع الآخرين فلا يستطيع الإنسان الاستغناء ماديًّا ومعنويًّا عن مجتمعه، وهنا تقع علينا مهمة عدم الابتعاد عن الأصدقاء الصالحين؛ لأن الصديق الصالح يُحيي قلوبنا على الدوام بنصائحه، وينفث فيها الحماس والوجد، لذا يجب

المحافظة على مثل هذه الصداقة في كلّ حين؛ في المدرسة وفي السوق وفي السفر الطويل، وبذلك لن يتسلل الشيطان -إن شاء الله- إلى قلوبنا مع وجود مثل هذا الحصنِ الحصينِ من الصداقة.

وأمرٌ آخر وهو لزومُ الإصغاء بقدر الإمكان إلى النصائح التي ترقّق القلب، فالنصائح التي تذكّرنا بالآخرة وبالعالم الآخر وتبعث فينا الوجدَ والشوق مهمّةٌ جدًّا، والنصيحة بهذا المعنى هي الدين نفسه، وعندما كان أسلافنا يقومون بالوعظ والإرشاد في المساجد كانت المساجدُ تطفحُ بالشوق والحماس فالإمام فخر الدين الرازي الذي أتقن الفلسفة وعلم الكلام وبرز فيهما كان عندما يعظ على المنبر يجهش بالبكاء فلا يفهم السامعون بعضَ ما يقوله؛ لذا نُعَدّ نحن جماعةً سيئة الحظّ لأننا حُرمنا من أمثال هؤلاء الوعّاظ الربانيّين، علمًا بأن الإنسانَ مخلوقٌ يحتاج إلى خشوعِ القلبِ وإلى دموع العين، وهو محتاجٌ كلّ يوم إلى التأمُّل في عالمه الداخلي والتعمّق فيه، والبكاء من متطلبات هذا الأمر، والقرآن الكريم يمدح أصحابَ القلوبِ الرقيقة والأعين الدامعة فيقول: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (سورة مَرْيَمَ: ١٩/٥٨).

لذا فما أحسنَ أن نقرأ كلّ يوم بضع صفحات عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ممّن عاشوا الإسلام بصدق، ونلوّن حياتنا بهم فإذا خرجنا إلى الشارع أو السوق خرجنا بهذه الروح المشحونة، فإن فعلنا هذا استقام عالَمُنا الداخلي من جهة، ووجدنا من جهةٍ أخرى فرصةَ مقارنةِ أنفسنا برجال القلب والروح الحقيقيين من أمثال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ونقول لأنفسنا: "لقد كان هؤلاء مسلمين، ونحن أيضًا مسلمون، فلماذا كانوا هكذا ولماذا أصبحنا نحن هكذا؟"، وبهذه المحاسبة والمراقبة

الذاتيـة نسـتطيع تجديـد أنفسـنا، فإن فعلنا هـذا بضـعَ مـرّات على الأقل كلّ أسـبوع فنحـن نأمـل أن يسـاعد هذا على ترقيـق قلوبنـا وإزالة الصدإ الـذي نشـعر بوجـوده أحيانًا في ذواتنـا، عند ذلك نسـتطيع أن نحسّ في قلوبنا بجميع التجليات الإلهية التي تنعكس عليها بكلّ أنوارها، ونتجنب وسـاوس الشـيطان، ويحصـل هـذا إما بالاسـتماع إلى شـخصٍ أو بقراءة القرآن أو بقراءة التفاسـير، فكما نحتاج إلى الهواء وإلى الماء وإلى الخبز فكذلك نحتاج وبنفس القدر إلى التجديد الذي لا حدودَ لأشكاله.

إذًا فحضورُ مجلسِ شـخصٍ يسـتطيع بثَّ الخشوع في قلوبنا وطلبُ النصيحة منه، وتجدّدُ استشـعار أفئدتنا برسولنا ﷺ وأصحابه ﷺ؛ كلّ هذا بمثابة القوة التي تُساعدنا على البقاء والصمود، وحذارِ أن تقولوا لأنفسكم نتيجـة مـرض الألفة والعادة إنني أعلم هذا الموضـوع فماذا يفيد إن قرأته مـرّةً أخـرى أو لم أقرأه؟ ولا تقولوا ماذا لو اسـتمعتُ أو لم أسـتمع؟ لأن هـذا غفلـة وانخـداع، فكما تتكـرّر الحاجة إلى الغـذاءِ المـادّيّ من طعامٍ وشـرابٍ فكذلك تتكرّرُ الحاجة لتغذية حياتنـا المعنوية وقلوبنا وضمائرنا وأحاسيسـنا الأخـرى بمثـل هذه الأمـور، واسـتنادًا إلى ما سـبق علينا أن نلجَأَ إلى كَنَفِ مرشـدٍ يسـتطيعُ بجوّه الروحيّ أن يُذيبَ كلّ الشرورِ ويرينا طُرُقَ وسـبلَ تجديد أنفسـنا، وقد يمكن تحقيق هذا الأمر أحيانًا بالمطالعة أو بالتأمّل أو بتذكّر الموت، وبقدرِ نجاحنا في تحقيق هذا بقدرِ ما نستطيع صيانةَ أنفُسِنا من وساوس شياطين الإنس والجن، ودعاؤنا الدائم لله تعالى هو أن يحفظنا من شـرور أنفُسِـنا ومن شرور الشيطان، علينا أن نلتزم هذه الأدعية والضراعة كي نبقَى ضمن حرز العناية الربانية.

# كيف ننجحُ في الامتحانات الإلهيّة

**سؤال: كيف لنا أن نفهم قول الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾** (سورة البَقَرَة: ٢/١٥٥)؟

**الجواب:** هناك العديد من التفاسير المفصّلة لهذه الآية، نحيل إليها مَن يرغب في تفسيرٍ مفصّل، أما نحن فسنعرض شرحًا موجزًا للآية كيلا نردّ طلبَ السائل، وقد يكون ما نقوله إعلامًا للمعلوم بالنسبة لبعض الأصدقاء، ولكن على اعتبارِ أنّ كلّ ما يُناطُ بالقرآن الكريم مهمٌّ بالنسبة لنا فإنّنا ننظرُ إلى المسألة من هذه الزاوية على اعتبار تعلُّقها بالقرآن الكريم وليس من باب أهمّيّة الردّ على السؤال.

وإليكم شرح هذه الآية:

يُقْسِمُ ربُّنا تبارك وتعالى فيقول: لنختبرنّكم ولنمتحننّكم بشدائد الأمور فيظهر من هو صابرًا محتسبًا محافظًا على اتباع الرسول ﷺ ممن ينقلبُ على عَقِبَيهِ، إننا سنبتليكم بـ"خوف" يدبّ في أوصالِكم؛ نرسله عليكم تباعًا، وسنسلّط عليكم أهل الدنيا لنرى مَن يخاف منكم ومَن لا يخاف، ونظهره للعيان، والله تعالى بعلمه الأزلي يعلم هذا، وإنّما يريد إظهار مَنْ يخاف ومَنْ لا يخاف منكم للعيان؛ لأن القدرة والإرادة متعلّقتان به.

الخوف أحدُ صُوَرِ هذا الامتحان، فالإنسان يخاف من الزلازل والجوع والظمإ والأعداءِ المادّيّين والمعنويين، وهذا الخوفُ امتحانٌ واختبارٌ له.

والنـوع الثاني مـن الامتحان هو الامتحـانُ بـ"الجـوع"، وقد تعرّضت الأمّـة المحمّديّـة لمثل هذا الامتحان الشـديد في عهودٍ معيّنة، ثم انحسَـرَ هـذا الامتحان اليـوم، صحيحٌ هناك بعض الجوع والبـؤس، ولكن ما هذا إلا صفعاتُ تنبيهٍ نَتَجَتْ عن إسـرافِ الإنسـان وسوء اسـتعماله، علمًا بأن الأجيال السـابقة -لا سـيما في القرنين المنصرميـن- تعرّضت إلى أفظـع أشـكالِ الجوعِ نتيجةَ تسـلُّط الأعداء في الداخل والخارج. أجل، ربما لا يـزال الجـوع إلى الآن يسـيطر على بعـض البلدان الإفريقيـة، غير أنّ هذا الجـوع بمثابـة صفعـةِ تنبيهٍ لهم؛ لسـوءِ اسـتعمال الموارد هنـاك؛ ولأنني شرحت هذا بالتفصيل في مناسبات أخرى فلن أُعيدَه هنا.

أمـا "النقـص من الأموال" فقـد يكون -من ناحية ما- بسـبب ما ينزل في المسـتقبل مـن آفات، أو لـزوال البركة، وهو إحدى صـور الامتحان، ومـا ظاهـرة التضخُّم المالي فـي عصرنا إلا محضُ امتحانٍ من أشـدّ هذه الامتحانات.

أمـا "النقـص في الأنفس" فيأتـي بمعنى القتل أو حرمان الإنسـان من العيش كإنسان محترم، وكما يمكن أن يتعرّض العالم الإسلامي إلى امتحان "النقص في الأنفس" نتيجةً للجهاد ضدّ العدوان الخارجي، فكذلك يُمكن أن يتعـرّض مَـن يعيش الحياة الإسـلامية إلى عزلةٍ مـن المجتمع فيعيش وكأنّـه مواطـن من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهذا أيضًا نمطٌ من أنماط هذا الامتحـان، كلّ هـذه امتحاناتٌ وابتـلاءات من قبل الله تعالـى يتعرض لها المؤمنون.

وقد يمتحننا الله تعالى بنقصٍ في "الثمرات" نتيجةً للآفات التي تُصاب بها الحدائق والبساتين، أو يمتحننا بنقصٍ في ثمرات كلّ أنواع الأعمال والجهود التي نبذلها، وهذه الامتحانات إما امتحانات ناتجة عن الذنوب والآثام التي اقترفناها؛ فهي تنبيهٌ وتحذيرٌ لنا، أو هي امتحاناتٌ لرفع درجاتنا ومراتبنا عند الله تعالى؛ فهي إذًا لطفٌ من ألطاف الله تعالى علينا.

ولا يظهر الصبر والصدق إلا بالامتحان؛ فالذين يُصرّون أن يبقوا ملازمين باب الله تعالى ولا ينفكّون عنه أملًا في الدخول في أيّة لحظةٍ مهما تعرّضوا للأذى والابتلاء هم الذين ينجحون في هذا الامتحان، أما الذين يتركون هذا الباب عند أقل محنة ويبدّلون طريقهم واتجاههم فسيرسبون في هذا الامتحان.

عندما كان الرسول ﷺ يتعرّض إلى بلاءٍ أو مصيبةٍ كان يهرعُ إلى الوضوءِ فالصلاةِ، والآيةُ الكريمةُ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٥٣) تعلّمنا هذه الحقيقة أيضًا، فإن أحاطت بكم البلايا وأظلمت آفاقكم فعليكم بالصبر والصلاة فهما طريقُ النجاةِ من هذه الدوامة، عليك أن تتحمّل وتصبر، وتصرّ على العبودية والتوجّه إلى حضرة مولاك تبارك وتعالى.

من المحتمل أن الله تعالى يريد بهذه الامتحانات أن يُظهر للعيان مدى وفائنا وولائنا وتحمّلنا وصِدقنا وصبرنا رغبةً في أن يوجهنا إلى قيمنا الحقيقية وكذلك ألطافه علينا؛ أي سيقيس مدى قوّة صبرِنا وصِدقنا بِرَدّ فعلنا وسلوكنا أثناء هذه الامتحانات ويعرّفنا بأنفسنا، وذلك لكيلا يكون للناس حجّة على الله، وربما يعترض العبد بعد هذا القياس والتقييم لنفسه ويقول معترفًا: يا رب! كم كنتُ شخصًا متقلبًا متلونًا! لقد امتحنْتَني مرةً

وأغلقتَ الباب في وجهي مرة فانحرفتُ وتحوَّلْتُ عن بابك وانصرفتُ عنك، بينما كان عليّ أن أُصارع أعداءَك وأبقى ثابتًا في مكاني أمام بابك لا أتحوّل عنه ولو تكررتْ أمامي المحن، لو عَرَّضْتَ جيوشي للهزيمة مئات المرات لكان عليّ أن أعتصم بك وأقول: أنت غايتي يا رب، لو هدمتَ عليّ بيتي، أو حرقت قلبي بفقد أولادي وأموالي؛ لكان عليّ ألا أنحرف عن بابك، لو ابتليتَني بالأمراض من قمّة رأسي إلى أخمص قدمي، وبدأت أَئِنُّ من الآلام والأوجاع لكان عليّ إذا ما وجدتُ في نفسي القدرة على النطق بكلمتين أو ثلاث أن أقول أيضًا: أنتَ غايتي يا رب، لكنني بدلًا من أن أكون هكذا وأقول هذا لم أستطع الصبر، واهتززت ورجعت وتركت بابك، فما أعظم جنايتي وما أكثر تلوّني وتقلُّبي.

والعبد يُمتحن حتى وإن كان سائرًا على الحقّ وعلى الصراط المستقيم، فهناك أحاديث كثيرة حول هذا، فالله تعالى يمتحن عبده ببلايا ومصائب شتّى لكي يسير العبد إلى ربّه طاهرًا نقيًا، وبذلك يظلّ يتنزّه في منازل الجنة بما يشعر به من أمانٍ واطمئنان.

سنتعرَّض نحنُ أيضًا لِلْغَرْبَلَةِ عدَّةَ مرَّاتٍ وسنُمتَحَنُ، وبذلك يُميّز الفحمُ عن الماس، والغثُّ من االسمين، والرديءُ عن الجيد، والامتحان ضروري لا سيما في أيامنا الحالية، فالحيلولة دون التلوّن والتقلّب المحتمل في المستقبل لا يمكن إلا بعد خوض غِمارِ مجموعة من المِحَنِ والاختبارات، لذا فإن الامتحان عاملٌ مهمّ لمن ينوي أن يهبَ نفسه لتحمّل عبْءِ الدعوة إلى الله، والله تعالى هو الممتحِن في الحال وفي المآل، وما علينا إلّا الثبات والصبر والتزام بابه بكلّ صدقٍ وعزيمةٍ وإخلاص.

## معيارُ زيّنا

**سؤال: ما المعيار الذي يجب أن تكون عليه أزياؤنا وأثاث بيوتنا؟**

**الجواب**: إن قضايانا نحن المسلمين تنطلق من الإيمان، وتستمر بالعبادة، وترتقي في المعاملة، ثم تتطوّر على شكلٍ يشمل عاداتنا وسلوكياتنا الشخصية، وتشكل كل قضية من هذه القضايا عمقًا خاصًّا في الحياة المتعددة الأبعاد التي نعيشها، وفي معظم هذه القضايا وفي أمور أخرى لا نعرفها نشعرُ بحاجة مُلِحّةٍ إلى الرائد القائد.

ومفخرة الإنسانية وسيد الكونين محمد ﷺ هو خير قدوة لنا في فهم حقيقة الدين واستيعابها وتحويلها إلى واقع مُعاش، إننا حتى في الوقت الحالي نرى ونشعر وكأن روحانيته ﷺ التي توحي بالسكينة ترفرف فوق رؤوسنا، أما أصحاب القلوب المستنيرة فهم محظوظون بالشعور الدائم بهذه الروحانية.

وخَلَفَ الرسول الكريم ﷺ في معظم القرون رجالٌ عظامٌ أزالوا السخام والصدأ عن القلوب رغم ما أتى عليه الزمان والحوادث، فأحيوا الدين، وكشفوا بأيديهم النورانية من جديد عن الهوية الحقيقية للروح المحمدية.

وقد اكتسبت هذه القضايا التي أسّسها الصحابة بُعدًا آخر على يد الإمام أبي حنيفة ومن على شاكلته من القامات الشامخة، ثم جاء مِنْ بَعدِهم رجال عظام أمثال الإمام الغزالي والإمام الرباني والإمام عبد القادر الكيلاني ومولانا جلال الدين الرومي ومهموم عصرنا الأستاذ النُّورسي فتجدّدت تلك القضايا وحافظت دائمًا على نشاطها وحيويتها، ورغم مرور هذا القدر من الزمان ومع كل هذه الغوائل فإننا ما زلنا نراها حتى في عصرنا نقيّةً متجدّدة بفضل هذه الأيادي النورانية، فالحمد لله حمدًا لا يُحَدّ ولا يُحصى أنه لم يطرِدْنا عن إحسانه، وجعلَنا -دون حولٍ لنا ولا قوة- على مثل هذا الحوض النوراني، وإن انتقاءَه لنا مع وجود من هم أنسب وأليق منا دليلٌ على فضل الله وإحسانه علينا، وليس على قدراتنا وجدارتنا في شيء، ومن التحقوا بهذا الأمر دون كثير من السعي أو الجهد ربما يوافقونني الرأي في ذلك.

لقد بُينت لنا حتى الآن معظم القضايا الضرورية في الوقت الحاضر وفي المستقبل، وقام السلَفُ بإنارة الطريق للخلَفِ بما لا يدع مجالًا لأيّ شكٍّ أو تردّدٍ، وما علينا بعد ذلك إلا أن نسير في هذا الطريق المنير فقط.

ولنضربْ مثالًا على هذه المسألة ممّا وردَ بالسؤال: فمثلًا كلّ الجوانب الخاصة بالملبس والمأكل والمشرب ونظام البيت وأثاثه قد شُرحت لنا بشكل تطبيقي، فنجد رسول الله ﷺ يرقدُ على الحصير، حتى أثَّر الحصير في جنبه المبارك ﷺ، وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه عندما تناول قدحًا من الماء البارد لم يتمالك نفسَه فأجهش بالبكاء، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تذكَّرْتُ أن الله عز وجل سيحاسبني على كل هذه النعم، وسيدنا عمر رضي الله عنه لما عرضت عليه ابنته حفصة أن يلبس ثوبًا أجمل ممّا هو عليه وبّخها بشدة دون اعتبار أنها أمٌّ للمؤمنين أجمعين.

ولقد تمثّلت مثل هذه الفلسفة الحياتية التي شهِدَ التاريخ آلافًا من أمثلتها التطبيقية على يد مهمومِ عصرِنا ومن سار على دربه من المهمومين الآخرين، فتحقق هذا التوازن التام بين الدنيا والعقبى والروح والجسد مجدّدًا، وذُكِّرَ الناس بهذه الأمور مرّةً أخرى.

أما نحن فلا يتأتى لنا أن نقول إننا قد استوعبنا هذه البساطة بكل جوانبها، يلزم أن نضع معيارًا لهذه البساطة حتى لا يستغربنا الناس، وأن يكون هذا المعيار أقصى حدٍّ نحافظ عليه ثم ننطلق منه.

وأحيانًا ننخدع ونعتقد أن هذا سيؤثر إيجابيًّا على مخاطبينا، بيد أن بساطَتَنا هي خيرُ دليلٍ على تفانينا وإخلاصنا الذي تظهَرُ آثاره في مخاطبينا، ولقد استوقفتني يومًا كلماتٌ صدرت عن رَجُلٍ من الطبقة المثقفة ما كنت أظنُّ أن يقول مثل هذا الكلام، حيثُ قال: "صدِّقوا هذا الرجل وثِقُوا به، فما رأيتُ في بيته إلا حصيرًا مثقوبَ الوسط"، فاعتبر هذا الرجلُ الحصيرَ مدعاةً للتصديق والثقة.

وبما أن البذخَ والترفَ لا حدّ لهما فلا يمكننا أن نبلغ منتهاهما، وأنا لا أتصوّر أن هذا البذخَ ينفعنا في خدمتنا، فلنا أن نستخدم معيار عدم الاستغراب إلى حدٍّ ما، ولا يجوز لنا أكثر من ذلك.

## الأستاذ النُّورْسي ومدينة "وَان"

**سؤال: يُذكر أن بديعَ الزمان النُّورسي أشار ذاتَ مرّةٍ إلى جزيرةٍ في بحيرة "وَانْ" قائلًا: "لو أعطوني هذه الجزيرة لأتّخذتُ عليها أحد عشر طالبًا أستطيع أن أتحدّى بهم العالم بأسره"، فهل هذا صحيح؟ وإن كان صحيحًا فكيف هذا؟**

**الجواب:** كثيرةٌ هي الأقوال التي تُسْنَدُ إلى العلماء العظام، وإذا ما أردنا الوقوفَ على السليمِ منها فيجبُ علينا إخضاعُها لبعض المعايير، والتي يأتي في مقدمتها الاطّلاع على مؤلّفات هذا العالِم الذي نُسِبَتْ له هذه الأقوال، فإنْ صودفت هذه الأقوال في كُتُبِهِ ومُؤَلَّفاتِهِ فمقبولة، وإلا فلا أستطيع أن أقول بِرَدّها؛ حيث إنه لا بد من تحرّي الدقّة كثيرًا في كلامنا، ووفقًا لهذا فمن المُحتمَل أن يكون الأستاذ بديع الزمان قد ذكر مثل هذا القول، وإن ذكره فلا ريب أنه صحيح، إلّا أنني شخصيًّا لا أتذكّر أنني صادفت هذا القول في مؤلفاته.

ومع ذلك فعلى فَرَضِ أن شخصًا مثل بديع الزمان ربّى أفرادًا في أيّ بقعةٍ من العالم فبإمكانه أن يُغيّر كل العالم، ولا جرم أنه لا بدّ من مراعاة عنصر الوقت وطبيعة العمل المطلوب القيام به.

لقد حاول سيدنا عيسى عليه السلام فتحَ أبواب العالم بأحدَ عشرَ حواريًّا ربّاهم فكسر شوكة إمبراطوريات العالم بهم، غير أن هذا الأمر لم يتوقف عند تلك الحقبة الزمنية، بل تخطّاها ودام لعدة عصور بعدها.

واستطاع نبينا محمد ﷺ أن يُزلزل الأرض تحت أقدام الملوك خلال مدّةٍ زمنيّةٍ قصيرة، وبدعوةٍ باكورتُها امرأةٌ وعبد ورجل، ولم يكُ أحدٌ في البداية يتوقع مثل هذه النتيجة، وأستميحكم عذرًا أن أقول هنا الشيء نفسه متجاوزًا حدّي: من الممكن أن نكشف عن هويتنا وذاتيّنا وأن نُبَلِّغَ العالمَ رسالةَ السماء بحفنة من الأفراد، إضافة إلى ذلك لقد ظهر عيانًا بيانًا اليوم حقيقة هذه الطريقة التي سنّها لنا الأستاذ النُّورسي، وقد استطعنا أن نرى ونشاهد الآن كل هذه الأمور التي تنبّأَ بها من قبل.

علاوةً على ذلك فإن تلويح الأستاذ النُّورسي بهذه البلدة يحمل أهميةً خاصةً؛ ولطالما كان يوحي لمن يمسكون بمقاليد السياسة في عهد الدولة العلية والمشروطية والجمهورية بإقامة جامعة في مدينة "وَانْ" رغم كل المتغيرات السياسية والإدارية الواقعة في كل فترة من فترات حياته.

كانت هذه غايةً عظيمةً وجمرةً يتلظّى بها قلبه، وقد لا يمكننا أن نستوعب تمام الحكمة من وراء ذلك، ولربما كان موقع مدينة "وَانْ" -من حيث كونها مركزًا لمنطقةٍ غنيّةٍ باللؤلؤ والألماس مثل الشرق الأوسط- هو الذي ساق هذا الإنسان العظيم إلى هذه الفِكرة.

ولربما أراد أن يلفت الأنظار إلى الوضع الخاص للشرق، فرأى ضرورة إقامة جامعة يحدِّدُ هو قواعدها الرئيسة؛ حتى يمكنها التصدي للأحداث المحتمل وقوعها في المستقبل، وظل ينادي بإلحاحٍ بإقامة جامعة "وَانْ".

قــد تكــون هناك حِكَــمٌ لا حصرَ لهــا ولا نعلمُها نحــنُ، وإننا نأمل أن يتحقــق هــذا الأمر بالكيفية التي أرادها الأســتاذ النُّورســي في المســتقبل، وسيشــهد الذين يدركون ســعادة رؤية ذلك اليوم كيف أن كل قول أو فعل لهــؤلاء العظام يُمَثِّلُ مــرآةً لآلاف من الحكم دون حاجة إلى أي تأويل أو تفسير.

وإننا نتضرّع إلى من وسعت رحمته كلّ شيء أن يمنّ علينا بتحقّق هذا الأمر بعد أن تبدّت لنا أماراته.

## مقياس العفوِ عند المسلم

**سؤال: ما الذي يجب أن يكون عليه مقياسُ العَفْوِ والسماحِ عند المسلم؟**

**الجواب:** العفو والسماح والصفح من صفات المسلم، ويجب على كلّ مسلم الاتصاف بها، فالعفو والصفح يُساهمان في ترقيق القلوب وإيصالِ الحقائق إليها، ومع ذلك فمهما كانت هذه الصفة جيّدةً فيجبُ أن تكون متوازنةً على مستوى معين، دون إفراط أو تفريط، كان الرسول ﷺ يعفو ويصفح إلى أقصى درجة ممكنة عن كلّ معاملة سيئة موجهة إلى شخصه، ولكنْ إن كانت هذه المعاملة تتعدّى على الآخرين أو تنتهك أسًّا من أسس الدين فتراهُ ينقلب إلى أسدٍ هصور حتى يأخذَ الحقَّ لصاحبه ويدفعَ عنه هذا البلاء.

لم يقلْ كلمةَ عِتابٍ واحدة للصحابة الذين لم يستوعبوا تمامًا دقّة الانقياد إلى أمره في معركة أحد؛ فتركوا أماكنهم وتسبّبوا في زعزعة جيشِ المسلمين، بل لم يُغلظ عليهم القول ألبتة؛ أما ردّ فعله تجاه المعاملة الخشنة التي تعرض لها من قبل بدوي فظّ بدعوى المطالبة بحقّه فكان التبسُّم ثم الالتفات إلى الصحابة وأمره لهم بأن يعطوا البدوي ما طلب، وإنّ ما ذكرناه لهو غيضٌ من فيض ونقرةُ طائرٍ من بحرِ أمثلةٍ عديدةٍ تثبت سعة مناخ العفو والسماح عنده ﷺ، أما العفو العام الذي أعلنه في مكة بعد فتحها فشيءٌ تحارُ له الألباب، ولا يصل إليه خيالُ إنسانِنا المعاصر.

لقد انخدع بعضُ المسلمين بدعاية أصحاب الإفك الذين حاولوا تشويهَ سمعة أمّنا عائشة ﵂ الطاهرة النقية التي تغبطها ملائكة السماء على عفّتها، ومن بين هؤلاء الذين لطّخوا هذا الذيلَ الطاهرَ وافتروا على السيدة عائشة التي نتمنّى أن تكتحلَ عيونُنا بالتراب الذي تمشي عليه حسانُ بن ثابتٍ شاعرُ النبي ﷺ، فلقد خدعَ هذا الشاعرَ أحدُ المنافقين بطريقةٍ أو بأخرى، فوقع في شِبَاكِ المفترين، وبعدما جاء الوحي ببراءة أمّنا عائشة أقيم عليهم حدّ القذف، ثم مرت السنوات وتقدّم حسان في العمر، ولم تعد عيناه تبصران، يقول مسروق بن الأجدع: دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ ﵂، وَعِنْدَهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يُنْشِدُهَا شِعْرًا، يُشَبِّبُ بِأَبْيَاتٍ لَهُ: وَقَالَ: حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ، قَالَ مَسْرُوقٌ: فَقُلْتُ لَهَا لِمَ تَأْذَنِينَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكِ؟ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة النُّورِ: ١١/٢٤) فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى؟ إِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ، أَوْ يُهَاجِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ(٩٢)، وفي رواية أخرى قالت السيدة عائشة ﵂ سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لحسّان: "**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ**"(٩٣).

وكان مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ من بين مَن تورّطوا في حديث الإفك مع أن أبا بكر ﵁ كان يتعهده وينفق عليه، وعندما ظهر اسمه بين المفترين أقسمَ أبو بكر ﵁ أنه سيكفّ عن مساعدته غضبًا منه، ولكن سرعان ما نزلت الآية ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾

(٩٢) صحيح البخاري، المغازي، ٣٦.

(٩٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٣٤.

(سورة النُّورِ: ٢٤/٢٢)، وما إن سمع أبو بكر ﷺ كلمات هذه الآية حتى حنَثَ بيمينه وأدى الكفّارةَ ثم استمر في مساعدة مِسطح ومعاونته والإحسان إليه وكأن شيئًا لم يحدث.

هذه أمثلة حول قيام المؤمنين بالصفح عن أفظع وأقبح ما يُمكن أن يُرتكب في حقّ أي شخص، والحقيقة أنهم استطاعوا النجاح في هذا الامتحان الصعب؛ وإن في ذلك لعبرةً لمن حملوا على عاتقهم مهمة تبليغ الحق والحقيقة.

على دُعاتنا الحاليين النفوذ إلى القلوب، وبيان الحقائق بخلقهم الرفيع وبسماحتهم، ولا يظنّنّ أن الخشونة والحِدّة والغلظة تفيد في شيء، فلم تُجدِ نفعًا لا اليوم ولا في أيّ عهد سابق، أما المناخ الدافئ لِخُلُقِ الصفح والمسامحة فيستطيع إذابة العديد من جبال الثلج، فكم من عدوٍ قرَّرَ قتلَ الرسول ﷺ غيلةً، وبفضل عفو الرسول ﷺ وصفحه وُهبت له الحياة ثم دخل في الإسلام وأصبح من أصدق أتباعه وأصحابه، ألم يكن خلق العفو والسماح لدى الرسول ﷺ هو الذي ألان قلب عمر بن الخطاب ﷺ فأسلَسَ قياده لرسول الله ﷺ؟ ألم يكن هذا الخلق الرفيع للرسول ﷺ هو الذي فتح قلب خالد بن الوليد ﷺ لنور الإسلام فانقشعت عنه الظلمة؟ أليست كلّ هذه فيوضاتٍ نورانيةً انبثقت من مناخ عفو وسماحة سيدنا رسول الله ﷺ؟

والحقيقة أن الله تعالى يطلب هذا من كلّ داعيةٍ وواعظٍ ومبلّغ، فمع أنه بعلمه الأزليّ يعلم أنّ فرعون لن يهتدي إلا أنه عندما أرسل إليه موسى وهارون ﷺ أمرهما أن يقولا له قولًا لينًا فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (سورة طَهَ: ٢٠/٤٤).

مهما تصرّف معارضونا تجاهنا بخشونةٍ وتعصُّبٍ ورجعيّةٍ وغيرها من الأمور التي تصبّ في مصلحة أهل الكفر فعلينا أن نُقابل هذه التصرّفات بمرونةٍ وشهامةٍ تليقُ وحالَ المؤمنين، فهذا هو ما يوجبه علينا المفهوم الأخلاقي الذي يعلّمنا إيّاه القرآن الكريم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (سورة الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٢)، إن الدستور الذي يجب أن يضعه المؤمن نصب عينيه على المستوى الفردي هو ما قاله ربنا تعالى ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التَّغَابُنِ: ٦٤/١٤).

فالمؤمن الذي يتمنى ويأمل أن يتجلّى الله عليه بصفات الغفران والرحمة عليه أن يتخلّق بهما ويجعل من العفو والصفح جزءًا لا يتجزّأ عن خُلُقه، لن يخسر الإنسان الذي جعل شيمتَه العفوَ والصفحَ أبدًا في أيّ مرحلة من مراحل حياته، والذي يضع المستقبل نصبَ عينيه وهو يعيش حياته الحالية إنسانٌ قد وهبه الله تعالى موهبةً وحكمةً خاصةً به، والذين ينالون مثل هذا الفضل هم أيضًا ورثة المستقبل في هذه الدنيا.